دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

# جهود السلطان المملوكي قانصوه الغوري في التصدي للأطماع البرتغالية في البحر الأحمر (٩٠٦ - ٩٢٢هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٦م)

**د. محمد عطا الله سالم الخليفات**
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية معان الجامعية – جامعة البلقاء التطبيقية
المملكة الأردنية الهاشمية

## مُلَخّص

*تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الجهود السياسية والعسكرية التي بذلها السلطان المملوكي قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠٠-١٥١٦م)، في التصدي للأطماع الاقتصادية والاستعمارية للبرتغاليين في البحر الأحمر، فتناولت بدايةً التعريف بالسلطان قانصوه الغوري، ثم تتبعت الحملات البرتغالية لترصين مركزهم في الهند وبحر العرب والبحر الأحمر، والتي كان أهمها حملات فاسكو دي غاما الذي كان أول من وصل للهند، وحملة البوكيرك الذي أستولى على مداخل البحر الأحمر، وحاول غزو جدة والأماكن المقدسة في الحجاز، كما عرضت للجهود الدبلوماسية والعسكرية التي بذلها السلطان الغوري في سبيل مواجهة الخطر البرتغالي على البحر الأحمر، فاستقبل وأرسل العديد من السفارات لدول أوروبا بغرض وقف الحملات البرتغالية على الشرق، كما خاض صراعًا حربيًا عنيفًا مع الأسطول البرتغالي في الهند، وإن كان فشل في تحقيق نصر حاسم عليهم، إلا أنه شكل مصدر مقاومة قوية لهم، مما جعل أمراء وسلاطين الهند وجنوب الجزيرة العربية والحجاز يعلقون عليه الآمال في طردهم من المنطقة. وانتهت الدراسة إلى عدد من النتائج، لعل أهمها: أن محاولات البرتغاليون في السيطرة على البحر الأحمر لم يكن هدفها اقتصادي فقط، بل كان لها أغراض استعمارية ودينية تمثلت في غزو جدة والاستيلاء على مكة المكرمة والمدينة المنورة، ونبش قبر الرسول (ﷺ).*

## بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٣ سبتمبر ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ أكتوبر ٢٠٢١

## كلمات مفتاحية:

الدولة المملوكية؛ قانصوه الغوري؛ الغزو البرتغالي؛ الهند؛ البحر الأحمر

## معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2021.258700

## الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد عطا الله سالم الخليفات، "جهود السلطان المملوكي قانصوه الغوري في التصدي للأطماع البرتغالية في البحر الأحمر (٩٠٦ – ٩٢٢ هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٦م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٤٢ – ٦١.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

**Corresponding author**: makhliefat2020@yahoo.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

**Open Access** This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَوريةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

## مُقدِّمَةُ

شكلت الفترة التي اعتلى فيها السلطان المملوكي قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠٠-١٥١٦م)، عرش السلطنة المملوكية، من أهم الفترات الحاسمة ليس في تاريخ مصر فحسب، بل في تاريخ المشرق الإسلامي عامة، ففي الوقت الذي وصلت فيه العلاقة بين الدول الإسلامية الثلاث الكبرى في المنطقة؛ وهي دولة المماليك في مصر وبلاد الشام والحجاز، ودولة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى وشرق أوروبا، ودولة الصفويين الشيعة في إيران، إلى مرحلة حرجة نتيجة احتكاك الحدود أولاً، واختلاف المذاهب والمصالح ثانيًا، كان الغرب المسيحي يعمل جاهدًا من أجل نهب خيرات ومقدرات الشرق، وضرب الإسلام والمسلمين.

ولا شك أن البرتغال هي من قادت تلك النزعة الاستعمارية نحو المشرق الإسلامي آنذاك، فما كاد فاسكو دي غاما ينجح في الوصول إلى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م، حتى انجلت الغمام عن الأطماع البرتغالية في المنطقة، حيث أعلنت عن رغبتها في فرض سيادتها على جميع الموانئ التجارية الواقعة على الطريق البحري بين رأس الرجاء الصالح والهند، والسيطرة على مداخل البحر الأحمر لإنهاء دور العرب والمسلمين في تجارة التوابل، وخنق اقتصادهم بتحويل تجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح، كما أعلنوا أنهم سيدمرون الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وكانت الدولة المملوكية أكثر دول المشرق تأثرًا بالغزو البرتغالي للهند وبحر العرب والبحر الأحمر، وذلك أن التجارة بين الشرق والغرب كانت تسلك طريق البحر الأحمر ومصر، غير أن تحويل البرتغال لتجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح ومنها إلى لشبونة، حرم مصر من المورد الأول لثروتها وقوتها، كما أن البحرية العسكرية البرتغالية استهدفت السفن التجارية المملوكية ملحقة بها خسائر فادحة من إحراق ونهب وسلب وتدمير. أمام هذا الخطر الجديد الذي سرعان ما تنامى إلى التهديد بغزو جدة، وتدمير المقدسات الإسلامية في الحجاز ونبش قبر الرسول (ﷺ)، لم يستطع السلطان الغوري أن يقف مكتوف اليدين، فعمد إلى مواجهة هذا الخطر بأسلوبين؛ دبلوماسي من خلال إرسال التهديدات إلى البابا في روما وبعض الدول الأوروبية ليمنعوا البرتغال من إرسال الحملات إلى الهند والبحر الأحمر. وعسكري من خلال تقوية الأسطول المملوكي في البحر الأحمر، وتحصين جدة، وإرسال الأساطيل الحربية إلى الهند ومداخل البحر الأحمر لحرب البرتغاليين والتصدي لهم.

وتكمن أهمية الدراسة في بيان خطورة الغزو البرتغالي للبحر الأحمر على المقدسات الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وإنهاء دور العرب والمسلمين في تجارة التوابل، وخنق اقتصادهم، وحرمان مصر من مصدر ثروتها وقوتها. في حين هدفت الدراسة إلى إبراز دور السلطان المملوكي قانصوه الغوري في مواجهة الأطماع البرتغالية في البحر الأحمر، والجهود التي بذلها في هذا الشأن، مع تبيان مظاهر الفشل والنجاح للأساليب التي اتبعها في صراعه مع البرتغاليين.

## أولاً: التعريف بالسلطان قانصوه الغوري

هو أبو النصر قانصوه بن عبدالله الجركسي الظاهري الأشرفي الغوري[١]، والظاهري نسبة إلى الظاهر خشقدم، أما الأشرفي فنسبة إلى السلطان الأشرف قايتباي؛ إذ كان قانصوه قد وقع ملكه أولاً للسلطان الظاهر خشقدم ثم انتقل إلى ملك قايتباي فنسب إليهم[٢]. أما الغوري فنسبة إلى طبقة الغور، وهي إحدى الطبقات التي كانت بمصر معدة لتعليم مماليك السلطان قراءة القرآن الكريم[٣]، وهناك من يذكر أن اسمه الحقيقي هو جندب، وقانصوه هو لقب أطلق عليه بعد أن اعتقه السلطان قايتباي[٤].

وشأنه شأن الكثير من سلاطين الدولة المملوكية تسكت المصادر عن تقديم شيء عن سيرته في حداثته وصباه، وإنما تكتف بالإشارة إلى أن ولادته كانت في حدود سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م، وأنه مجلوب من أصل جركسي[٥]، ويذكر ابن إياس أن نجم السلطان قانصوه الغوري بدأ بالصعود منذ أن أعتقه السلطان قايتباي، وذلك أن العتق آنذاك كان مكافئة للمملوك الفارس الشجاع، فبعد أن وجد قايتباي في مملوكه قانصوه من الصفات التي تؤهل عتقه، أعتقه ومنحه شيء من القماش والخيل ليستعين بذلك على حياته الجديدة، وعينه في جملة مماليكه الجمدارية وهم الذين يعاونون السلطان في لبس ملابسه، ثم سرعان ما رقاه فجعله من حرسه الخاص، ونظرًا لما أبداه الغوري من إخلاص في العمل وقيامه بمهامه على أكمل وجه، أولاه السلطان قايتباي جل عنايته وأخذ يرقيه في المناصب فعينه عام (٨٨٦م/ ١٤٨١م)، كاشفًا للوجه القبلي، ثم أنعم عليه في سنة (٨٨٩هـ/١٤٨٤م) بلقب أمير عشرة، ثم ولي بعض الولايات في بلاد الشام وما يتصل بها من بلاد العواصم، حيث أسندت إليه أولاً ولاية طرسوس[٦]، ثم نقل عام (٨٩٤هـ/١٤٨٨م) إلى حلب[٧] بوظيفة حاجب حجاب، ثم نقل إلى

نيابة ملطية[٨] وبقي على نيابتها حتى وفاة السلطان قايتباي سنة (٩٠١هـ/١٤٩٥م)[٩].

وما أن تمت البيعة للسلطان الجديد الناصر محمد بن قايتباي، حتى عاد الغوري إلى القاهرة، وأخذ يرتقي أكثر وأكثر في سلك الإمارة، فقد أنعم عليه الناصر بلقب أمير مئة، ثم مقدم ألف وهو من أعلى ألقاب إمارة الجند[١٠]. وحدث في سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م أن انتفض الأمراء على السلطان الناصر محمد وقتلوه، واختاروا للسلطنة الظاهر قانصوه بن قانصوه – وهو خال السلطان القتيل – وفي عهده أسندت للغوري وظيفة رأس نوبة النوب؛ أي رئيس هيئة تنظيم حركات الجنود[١١].

غير أن السلطان الظاهر قانصوه لم يلبث طويلاً إذ خلعه أمراء الجيش سنة (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)، ليتولى السلطنة بدلاً منه الأشرف جان بلاط الذي هو الآخر سرعان ما عزل وخنق في الإسكندرية بمؤامرة ثلاثية دبرها له كل من الأمير طومان باي الدوادار، ونائب الشام الأمير قوصروه، والقائد قانصوه الغوري، ونصب طومان باي نفسه سلطانًا على مصر بمعونة معاونيه ولقب نفسه "الملك العادل" وذلك في جمادى الآخرة سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، وأسند إلى معاونيه في الانقلاب قوصروه منصب الأتابكية، في حين أسند إلى الغوري منصب الدوادارية الكبرى والوزارة والأستادارية، وهي الأعمال التي كان يليها طومان باي قبل تنصيبه ملكًا[١٢].

لكن الملك العادل ما أن استقر في دار ملكه حتى غدر بحليفه قوصروه فقتله، ثم أخذ يسيء للعسكر والأمراء ويدبر الغدر بهم، واستشط في سفك الدماء، فحقد عليه الأمراء وفيهم قانصوه الغوري واتفقوا على قتله غير أنهم ما أن أهموا به حتى فر ناجيًا بنفسه من القلعة، واختفى عن الأنظار وكان ذلك في رمضان سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)[١٣]. وما أن تأكد الأمراء المناهضون للملك العادل من اختفائه حتى اجتمعوا وأخذوا يتشاورون في أمر السلطنة، وانتهى رأيهم على اختيار قانصوه الغوري، غير أن قانصوه رفض هذا المنصب في بادئ الأمر وأخذ يتهرب منهم، يقول ابن إياس: "وقالوا ما نسلطن إلا هذا (قانصوه الغوري) فسحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكي"[١٤]. ولعل الموتة الوحشية التي تعرض لها سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم والمؤامرات التي حيكت ضدهم هي ما جعلته يتهرب من هذا المنصب[١٥]. لكنه اضطر أخيرًا أمام إصرار الأمراء على قبول عرضهم بعد أن اشترط عليهم أن "لا يقتلونه إذا أرادوا خلعه فقبلوا منه ذلك"[١٦]. وتمت له البيعة في قلعة الجبل يوم الاثنين مستهل شهر شوال سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م، ولقب بالملك الأشرف، وكنوه بأبي النصر، ويذكر ابن إياس أن مراسيم البيعة أجريت له وهو يمتنع والدموع تملأ عينيه اشفاقًا على حاله وخوفًا من تبعات قراره[١٧].

ويبدو أن إصرار الأمراء على اختيار قانصوه الغوري للسلطنة لم يكن إيمانًا منهم بأحقيته أو تقديرًا لكبر سنه إذ كان قد شارف على الستين، وإنما لاعتقادهم أنه ضعيف، يمكن التلاعب به وفق أهوائهم، وعزله متى أرادوا، لكن الغوري ما كاد أن يلي السلطنة حتى أثبت أنه رجل قوي ذو رأي وفطنة ودهاء[١٨]، فكان أول عمل قام به بعد توليه السلطنة العثور على الملك العادل وقتله حتى لا يثير عليه الفتن[١٩]، ثم أخذ بملاحقة مماليك العادل وغيره من السلاطين المتقدمين من ذوي الشوكة والقوة إما بالنفي أو القتل "حتى أفناهم وصفت له المملكة"[٢٠]. وملأ مناصب الدولة بمن يثق بهم من كبار الأمراء وخاصة من أصدقائه أو من أعضاء الحزب المعادي للملك العادل[٢١]. ولما اطمئن لإعادة الأمن والاستقرار للعاصمة، التفت إلى علاج الأزمة المالية التي كانت تعاني منها الدولة؛ إذ كانت خزائنها خاوية بفعل الحروب الأهلية والفتن والسرقات، ففرض ضرائب إجبارية على كافة أنواع الممتلكات ولم يستثن منها شيئًا حتى شملت الأوقاف الخيرية، وضاعف المكوس والرسوم الجمركية على التجار، وانتهج سياسة مصادرة التركات، وسك عملة جديدة رديئة لتستفيد الخزانة من الفارق بينها وبين العملة الجيدة، وكانت النتيجة في هذا الشأن أن حقق الغوري غايته[٢٢]، وجمع ما يتطلع له من أموال، لكن كل ذلك كان على حساب الشعب.

وعلى الرغم من قيام بعض الفتن والثورات الداخلية في عهد السلطان قانصوه إلا أنه استطاع التغلب عليها بكل حنكة واقتدار، لكن التهديد الذي عصف بملكه وضرب بقوة كيان الدولة المملوكية عامة، جاء من الخارج وتمثل في خطرين؛ الأول الصدام مع البرتغاليين نتيجة لاكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح ووصولهم للهند ومحاولة فرض هيمنتهم على البحر الأحمر، الأمر الذي حرم مصر من موردها الأساس لثروتها وعظمتها وقوتها، وهذا ما ستتناوله الدراسة بالتفصيل لاحقًا. أما الخطر الثاني فتمثل بالعثمانيين والذين على أيديهم لقي السلطان قانصوه الغوري حتفه، وذلك أن السلطان العثماني سليم الأول[٢٣](٨٧٨- ٩٢٦هـ/ ١٥١٢- ١٥٢٠م) بعد أن تمكن من الانتصار على الصفويين في معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، توجه بأنظاره نحو أراضي المماليك، فقام عام (٩٢١هـ/ ١٥١٥م) بالاستيلاء على إمارة دلغادر[٢٤] المشمولة بحماية سلطنة

المماليك، ثم بدأ يفكر في دخول مصر وإلحاقها بتبعيته، ورأى أن يبدأ أولاً ببلاد الشام، ولتحقيق هذه الغاية أخذ السلطان سليم الأول بحشد الحشود الكبيرة من الجند بالقرب من حدود الدولة المملوكية، وما أن بلغت أنباء تلك الحشود للسلطان قانصوه حتى قام هو الآخر على وجه السرعة بحشد قواته والاستعداد للمواجهة[٢٥].

وفي صيف سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، خرج قانصوه الغوري على رأس جيشه إلى بلاد الشام فالتقى بالجيش العثماني عند مرج دابق بالقرب من حلب يوم ١٤ رجب/ ٢٤ آب من السنة المذكورة، في معركة حامية الوطيس، وكاد الجيش المملوكي أن يحقق النصر غير أن خيانة ناب حلب المملوكي "خاير بك"، وانسحابه مع أعوانه من ساحة المعركة بعد أن أشاع أن السلطان الغوري قد خر قتيلاً، يقول ابن زنبل، أن خاير بك ومن انهزم معه نادوا بالجيش بأعلى أصواتهم "الفرار، الفرار، فإن السلطان سليم أحاط بكم، وقتل الغوري، والكسرة علينا"[٢٦].

أدت هذه الخيانة إلى تفرق المماليك، واختلال صفوفهم، وحاول السلطان الغوري عبثًا إيقاف فرار مماليكه، حتى بلغ به اليأس فوقع على الأرض مغشيًا عليه فزهقت روحه التياعًا وحسرة تحت سنابك الخيل[٢٧]، وقيل أنه لما أيقن الهزيمة ابتلع فص ماس كان معه، فغاب عن الوجود وسقط عن فرسه ومات من وقته[٢٨]. ويذكر ابن زنبل أن أحد أمراء الغوري ويدعى "علان" وهو من الأمراء القلائل الذين ثبتوا معه، لما رأى الغوري قد وقع على الأرض، أمر عبدًا من عبيده فقطع رأسه وألقاه في بئر قريب منهم مخافة أن يقتله العدو ويطوفون برأسه بلاد الروم[٢٩]. ولعل ما فعله الأمير علان بجثة الغوري، كان السبب في عدم التعرف على جثته بين القتلى، وهذا ما يؤكده ابن إياس بقوله: "وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر .. ولا ظهرت جثته بين القتلاء، فكأن الأرض قد انشقت وابتلعته"[٣٠].

وهكذا كانت نهاية الغوري في ساحة المعركة بعد أن قضى في ملك مصر والشام والحجاز وسائر البلاد التابعة لها، مدة امتدت زهاء خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يومًا[٣١]. وقد تجاوز عمره عند وفاته اثنان وسبعون عامًا، ولم يترك من الأولاد إلا ابن واحد وهو الناصري محمد صحبه معه السلطان العثماني سليم الأول عند عودته من القاهرة إلى القسطنطينية[٣٢]. ومما عرف عن السلطان الغوري ميله إلى السلم، وتفضيله حياة المودعة والاستقرار داخليًا، مع جنوحه إلى سياسة الدفاع عن بلاده ضد أي معتد من خلال إرسال التجاريد، كما عرف عنه ولعه ببناء القصور والقلاع والحوانيت، والمرافق العامة ذات النفع للناس مثل المساجد والمدارس والقناطر والجسور، كما عني بطريق الحج وحفر بعض الآبار، واشتهر بلاطه بالمجالس الأدبية التي ضمت الشعراء والأدباء والعلماء[٣٣].

## ثانيًا: الغزو البرتغالي لسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر

كان للنجاح الباهر الذي حققته حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية في غرب أفريقيا في عهد الملك البرتغالي هنري الملاح (Henry Al-mallah) (١٣٩٤-١٤٦٠م)، أثره البالغ على الملك جون الثاني (Jean II) (١٤٨١-١٤٩٥م)، الذي قرر فور جلوسه على عرش البرتغال مواصلة الجهود الكشفية لبلاده حتى بلوغ بلاد الهند، ولاستكمال ما بدأه الملك هنري الملاح كلف الملك جون الرحالة بارثليمو دياز (Bartholomeu Diaz) البحث عن طريق يخترق فيه أفريقيا ويوصل البرتغال إلى الهند[٣٤]، وبعد أن تجهز دياز لهذه الرحلة الطويلة، غادر مدينة لشبونة[٣٥] سنة (٨٩٣هـ/١٤٩٧م) على رأس ثلاث سفن، وسار بمحاذاة الساحل الغربي لأفريقيا، ثم سار باتجاه الجنوب ثم أبحر شرقًا فشمالاً حتى وصل إلى خليج موسل[٣٦]، وبعد مضي عدة شهور في هذه الرحلة لاحظ دياز أن الساحل الإفريقي قد أصبح على الجانب الأيسر من سفنه، وأدرك أنه عبر جنوب إفريقية، وأصبح بمحاذاة الساحل الشرقي للقارة، فقفل عائدًا، وفي طريق عودته مر بمنطقة الرأس لجنوب القارة الإفريقية، والذي أطلق عليه اسم رأس العواصف (Cabo Tormentoso)، لكثرة العواصف التي واجهته هناك، أما رأس الرجاء الصالح (Cabo da Boa Esperanca) فهو الاسم الذي أطلقه عليه الملك البرتغالي جون الثاني[٣٧].

وعلى هذا حققت رحلة دياز نجاحًا باهرًا للبرتغاليين، فقد فتحت المجال أمامهم في تحقيق أهدافهم الرئيسة في الشرق والتي تمثلت في السيطرة على مواطن التوابل، وفرض الحصار الاقتصادي على مداخل البحر الأحمر والخليج العربي، وانتزاع احتكار تجارة الشرق من مصر، وهيأت الفرصة أمامهم للوصول للأماكن المقدسة الإسلامية.

وبعد وفاة الملك البرتغالي جون، خلفه في الحكم أخوه الملك عمانويل الأول (Emmannuel I) (١٤٩٥-١٥٢٠م)، الذي كان متحمسًا للوصول بحرًا للهند، ولتحقيق هذه الغاية وقع اختياره على الرحالة فاسكو دي غاما (Vasco de Gama)، وقد استطاع دي غاما وبإرشاد من البحار العربي أحمد بن ماجد[٣٨] أن

يدور حول رأس الرجاء الصالح وأن يصل إلى مدينة كاليكوت[٣٩] على الساحل الغربي للهند في (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م)[٤٠]، ورغم أن دي غاما أخفق في عقد معاهدة تجارية مع الزامورين حاكم كاليكوت بفعل تدخل التجار المسلمون في المدينة الذين حذروه من تبعات موافقته على تزويد البرتغال بالتوابل على تجارة مملكته، إلا أنه عاد للبرتغال سنة (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م) بعد أن استغرقت رحلته سنتين، بحمولة لا بأس بها من التوابل، وهذا ما عده الملك عمانويل نجاحًا كبيرًا[٤١]، فأقام الاحتفالات الرسمية والشعبية ابتهاجًا بهذه المناسبة[٤٢].

ويشير المليباري إلى خبر وصول البرتغاليين لأول مرة إلى كاليكوت بقوله: "إن ابتداء وصولهم إلى مليبار كان سنة أربع وتسعمائة من الهجرة النبوية وصلوا إلى فندرينة في ثلاث مسماريات.. ثم خرجوا منها إلى بندر كاليكوت في طريق البر، وأقاموا فيها شهور يتعرفون أخبار مليبار وأحوالها.. وسبب وصولهم إلى مليبار على ما يحكى عنهم طلب بلاد الفلفل ليختص تجارته بهم"[٤٣].

ولا شك أن نجاح فاسكو دي غاما في الوصول إلى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح، قد فتح الباب على مصرعيه أمام الأطماع البرتغالية في فرض سيادتها على جميع الموانئ التجارية الواقعة على الطريق البحري بين الهند ورأس الرجاء الصالح، والسيطرة على مداخل البحر الأحمر والخليج العربي، وجعلها مراكز منيعة للبرتغاليين وإغلاقها أما التجار العرب[٤٤].

من هنا أرسلت البرتغال للمنطقة العديد من الحملات العسكرية المتتالية لتحقيق أهدافها الاستعمارية، كانت أولاها سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) بقيادة ديوجو دياز (Diego Diaz)، أسفرت عن احتلال البرتغاليين لجزيرة مدغشقر[٤٥]، والاستيلاء على الكثير من مدن ساحل شرق أفريقيا[٤٦]. ثم وفي أواخر نفس السنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)، أرسل الملك عمانويل حملة أخرى للهند بقيادة الفاريز كابرال (Alvarez Cabral)، وجعل هدفها إنشاء مركز تجاري للبرتغال على ساحل الهند، غير أن كابرال لم يكد أن تطأ قدماه كاليكوت حتى أخذت تتسم تصرفاته بالعجرفة خاصة ضد التجار المسلمين الذين حاولوا منعهم من ممارسة التجارة، بل أنه تعدى هو ورجاله عليهم مما شكك الزامورين حاكم كاليكوت في نواياهم وتوجس خيفة منهم، فأمر بقتالهم، فقتل منهم نحو سبعين رجلاً[٤٧]، ويلخص المليباري خبر حملة كابرال فيقول :"دخلوا في كاليكوت على هيئة التجار، واشتغلوا بالتجارات، وقالوا لعمال السامري[٤٨] ينبغي منع المسلمين من تجاراتهم، ومن السفر إلى بر العرب .. ثم أنهم تعدوا على المسلمين، فأمر السامري بقتلهم، فقتل منهم نحو سبعين أو ستين رجلاً وهرب الباقون"[٤٩]. وعندما عجز كابرال عن المواجهة قفل عائدًا إلى لشبونة.

أدت أنباء المذبحة التي تعرضت لها قوات كابرال في كاليكوت، إلى تصميم الملك البرتغالي عمانويل على إرسال أسطول حربي قوي للهند للثأر من المسلمين ومن حاكم كاليكوت، وجعل على قيادة هذا الأسطول الذي تكون من عشرين سفينة فاسكو دي غاما، الذي غادر لشبونة سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م)، بعد أن حدد له سيده خطة أعماله، التي تضمنت القضاء على نفوذ العرب التجاري في الهند، وتمزيق كل قواتهم التجارية هناك[٥٠]، وتحويل طريق تجارة التوابل إلى طريق واحد فقط تحت سيطرة الأساطيل البرتغالية دون غيرها وهو طريق رأس الرجاء الصالح، وسد المنافذ التجارية البحرية أمام التجارة العربية الإسلامية في الخليج العربي والبحر الأحمر، ومنع أي سفينة من دخول البحر الأحمر بالذات أو الخروج منه، بهدف إضعاف القوى الإسلامية في كل مناطق الشرق[٥١].

وما كاد دي غاما يصل المياه الهندية، حتى مارس القرصنة والإرهاب البشع ضد المسلمين، من خلال التمثيل بأجسادهم، وتقطيع أعضائهم، وسرقة البضائع من السفن وخاصة الإسلامية، مثال ذلك السفينة المسماه "مريم" المملوكة للسلطان قانصوه الغوري، التي استولى عليها أمام ساحل المليبار وكانت محملة بالتوابل بالإضافة إلى بعض الحجاج الهنود الذين كانوا يقصدون مكة المكرمة، إذ بعد أن نهب ما فيها من بضائع، قام بحرقها بمن عليها[٥٢]. وكان السلطان الغوري لما علم بذلك استاء كثيرًا ونذر أن ينتقم من البرتغال أشد انتقام[٥٣].

وكان فاسكو دي غاما بعد وصوله إلى الهند توجه إلى حاكم كنانور[٥٤] ثم حاكم كوشين[٥٥] وعقد معهم معاهدات تجارية، ثم توجه بأسطوله إلى كاليكوت وحاول في بداية الأمر التقرب من الزامورين وديًا، وعندما فشل في ذلك أمطر المدينة بوابل من مدفعيته ثم قفل عائدًا إلى لشبونة بعد أن ترك عددًا من سفنه تحت قيادة أحد ضباطه لتجوب المحيط الهندي للقيام بأعمال القرصنة البحرية ومهاجمة السفن الإسلامية، كذلك أمره بإغلاق البحر الأحمر أمام السفن العربية الداخلة والخارجة منه[٥٦].

ويبدو أن هذه القوات قد نشطت في ممارسة القرصنة ضد السفن الإسلامية وهذا ما لاحظه ابن الديبع بأم عينه، إذ يذكر في حوادث سنة (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) قيام مجموعة من مراكب الفرنج في البحر بطريق الهند وهرمز بالاستيلاء على سبعة مراكب

للمسلمين بعد أن قتلوا أهلها[٥٧]. أما اليمني فيذكر أنه في هذه السنة أي (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) "كثرت مراكب الإفرنج في بحر الهند وهرمز وتلك الجهات، وعظم أذاهم للمسلمين"[٥٨].

وتتابعت الحملات البرتغالية لترصين مركزهم في الهند، ونقل طريق تجارة التوابل إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح بدلاً من البحر الأحمر، ولعل من أهم تلك الحملات العسكرية التي تلت حملة فاسكو دي غاما، حملتي القائد ألفونسو دي البوكيرك (Alfonso de Albuquerque)، فقد جاءت الحملة الأولى سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م)، لتحقيق هدفين؛ الأول احتلال جميع الموانئ التجارية على طول الطريق البحري بين رأس الرجاء الصالح والهند، وجعلها مراكز برتغالية حصينة[٥٩]، والثاني الانتقام من الزامورين حاكم كاليكوت الذي تغلب على مملكة كوشين الهندية وقضى على الحامية البرتغالية فيها بعد عودة دي غاما، وقد نجح البوكيرك من تنفيذ مهمته وأجبر الزامورين على دفع غرامة عينية كبيرة وإقامة قلعة برتغالية في بلاده[٦٠]، وكان البوكيرك قد استغل فترة إقامته في الهند بجمع المعلومات عن الأوضاع التجارية والسياسية في الهند، ووضع الخطط المناسبة التي تضمن لبلاده السيطرة البحرية في المنطقة، وضمنها في تقريره الذي قدمه للملك عمانويل بعد عودته للبرتغال سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م)، وكان من أهم ما جاء في ذلك التقرير ضرورة احتلال جزيرة سوقطرة[٦١] ثم ميناء عدن للتحكم في مدخل البحر الأحمر، واحتلال هرمز[٦٢] للسيطرة على تجارة الخليج العربي[٦٣].

وفي سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، استقر رأي الملك عمانويل على تعيين نائب له بصفة دائمة في الهند، فوقع اختياره على الدوق فرنسيسكو دي الميدا (Francisco de Almeida)، فغادر الميدا لشبونة في ٩١١هـ/ أيار ١٥٠٥م، واتخذ من كوشين مقرًا لقيادته، وعمل على تثبيت الوجود البرتغالي في الهند، كما أنه أصدر قانون (Cartazes) الذي فرض بموجبه على جميع السفن الإسلامية المارة ببحر الهند الحصول على تصاريح خاصة مقابل أداء مبالغ معينة، وقد هدف هذا القانون للحد من النشاط التجاري العربي الإسلامي في سواحل المليبار، إذ أصبحت السفن الإسلامية لا تبحر إلا بتصريح برتغالي، ومع مرور الوقت لم يعد البرتغاليون يراعون هذا التصريح، فقد أخذوا بممارسة القرصنة ضد السفن الإسلامية سواء أكان لديها تصريح أم لا[٦٤]، ويؤكد ذلك النهروالي بقوله:" فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرًا ونهبًا، ويأخذون كل سفينة غصبًا، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين، وعم أذاهم على المسافرين"[٦٥].

هذا وعندما اشتد خطر البرتغاليون على التجار العرب والمسلمين المقيمين في كاليكوت وغيرها من المراكز التجارية الهندية، بل وتعيق تجاراتهم في سواحل الجنوب العربي والمحيط الهندي، استنجد التجار المسلمون بالسلطان الغوري في مصر، مبينين له خطر هؤلاء الغزاة الجدد الذين يصحبون معهم الجنود لغزو البلاد الإسلامية، والرهبان للتبشير بالمسيحية، فضلاً عن خطرهم العاجل على مصر من خلال حرمانها من مورد مالي عظيم يعتبر من أهم موارد دخلها، وجاء رد الغوري على نداء الاستغاثة هذا في الحال، فجهد على الاستجابة له بالوسائل السلمية الدبلوماسية من جهة، كما شرع في تجهيز حملة حربية لمواجهته من جهة أخرى[٦٦].

وفي سنة (٩١٢هـ/ ١٥٠٦م)، عاد البوكيرك مرة أخرى للهند على رأس حملة جديدة، وهذه المرة بصفته نائبًا للملك في الهند، خلفًا للدوق الميدا، وحدد الملك عمانويل له هدف رئيس يجب عليه العمل لتحقيقه وهو سد منافذ التجارة الإسلامية المتمثلة في البحر الأحمر والخليج العربي[٦٧]. فاستولى البوكيرك سنة (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م) على جزيرة سوقطرة الواقعة في منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي، كما حاول الاستيلاء على عدن في نفس السنة لكنه فشل أمام قوة تحصيناتها واستبسال أهلها، مما اضطره ذلك إلى الانسحاب فتوجه إلى الخليج العربي فاستولى على جزيرة هرمز بعد معركة عنيفة، يقول ابن الديبع "وفي هذه السنة (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م) غلب الفرنج على مدينة هرمز وأخذوها وأسروا أهلها المسلمين والتجار"[٦٨]. وفي سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م) استولى البوكيرك على مدينة قلهات[٦٩]، ومدينة مسقط التي كانت تشكل الميناء الرئيس على ساحل عمان، وذلك بعد أن دمرهما وأضرم النيران بهما[٧٠].

واتجه البوكيرك بعد ذلك بأنظاره إلى مدينة جوا (Goa) على الساحل الغربي في ولاية بيجابور الهندية، فاستولى عليها واتخذ منها عاصمة لمستعمرات البرتغال في الشرق[٧١]، ومن جوا كتب البوكيرك رسالة إلى مليكه عمانويل سنة (٩١٧هـ/ ١٥١٢م)، يبين له فيها ضرورة الاستيلاء على البحر الأحمر، ومما جاء فيها "إنه لن يكون هناك ثقة أو سلام لرعايا جلالتكم في هذه الأجزاء، إلا بأن نذهب إلى البحر الأحمر"[٧٢]. وكان البوكيرك يضع في نصب عينيه حال دخوله البحر الأحمر تنفيذ مشروعه الذي طالما حلم به والذي يحمل طابعًا صليبيًا، وهو احتلال المدينة المنورة ونبش قبر الرسول (ﷺ)، ليجعله رهينة ليفاوض به سيده تسليمه للمسلمين مقابل تنازل المسلمين عن الأماكن المقدسة المسيحية في القدس، فقد جاء في يوميات البوكيرك

قوله: "كان هدفنا الوصول إلى الأماكن المقدسة للمسلمين، واقتحام المسجد النبوي، وأخذ رفاة النبي محمد(ﷺ) رهينة، لنساوم عليها العرب من أجل استرداد القدس"[٧٣].

ومن خلال دراسة الأوضاع المحيطة بالبحر الأحمر وجد البوكيرك أن احتلال الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز يستلزم إنشاء قاعدة بحرية عند مدخل البحر الأحمر، لذلك فكر في احتلال عدن التي تعد المدخل الحقيقي للبحر الأحمر واتخاذها قاعدة له، ولم يشأ أن يضيع الوقت فخرج في شباط ١٥١٣م على رأس حملة كبرى من جوا تكونت من عشرين سفينة وألف وسبعمائة جندي برتغالي وبضع مئات من الهنود المناصرين له[٧٤]، وحاول البوكيرك فور وصوله لساحل عدن الاتصال بحاكم المدينة "مرجان الظافري" لتسليم المدينة بدون قتال، غير أن عدم استجابة مرجان لطلبه دفعه إلى إصدار أوامره بالهجوم الشامل على المدينة في شهر محرم ٩١٩هـ/ آذار ١٥١٣م، مستخدمًا المدافع لضرب المدينة والسلالم لتسلق أسوارها، إلا أن جميع محاولاته لاقتحام المدينة باءت بالفشل، مما اضطره للانسحاب باتجاه باب المندب بعد أن تكبد خسائر فادحة في الأرواح والعتاد[٧٥].

وأثناء انسحابه من عدن مرّ البوكيرك بجزيرة بريم الواقعة عند مدخل البحر الأحمر، وعندما وجدها غير ملائمة لإقامة الحصون عليها أحرقها وغادرها متوجهًا نحو جزيرة كمران[٧٦]، ورغم مقاومة أهلها إلا أنه تمكن من الاستيلاء عليها في بداية شهر صفر سنة ٩١٩هـ/ إبريل ١٥١٣م، وأثناء إقامته بها والتي استمرت أربعة أشهر، استولى البوكيرك على أربعة سفن إسلامية تتبع إحداها للسلطان قانصوه الغوري، فأخذ السلع منها ثم أحرقها بعد أن نكل ببحارتها[٧٧].

ومن جزيرة كمران تطلع البوكيرك إلى غزو ميناء جدة، ثم الوصول للمدينة المنورة ونبش قبر الرسول (ﷺ)، تنفيذًا لوصية مليكه عمانويل باقتلاع جذور الإسلام وضربه في عقر داره، فخرج في شهر ربيع الأول سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) على رأس أسطول مؤلف من أربعمائة سفينة، لكن الرياح اضطرته الرجوع إلى جزيرة كمران قبل الوصول إلى جدة[٧٨]، بينما تشير إحدى الروايات أن سبب فشل حملة البوكيرك على جدة هو رؤية البوكيرك أثناء مسيرة حملته في الليل وهج ولهب في السماء فوق الحجاز والمدينة المنورة، وأن ذلك الوهج لم يلبث أن تحول إلى كتلة من النار ثم تحركت تلك النار فتوقفت فوق سفن البرتغاليين فترة ثم تحركت سريعًا صوب الحبشة لتختفي هناك، وقد أصيب البوكيرك بالذعر لذلك فأصدر أوامره بالعودة إلى كمران، وبقي هناك مدة أكثر من شهرين، شن خلالهما حملات تخريبية ضد موانئ البحر الأحمر، فهاجم مينائي زيلع[٧٩] وبربرة[٨٠]، واستخدمهما للاستيلاء على السفن الإسلامية القادمة من البحر الأحمر، كما عاود هجومه مرة ثانية على عدن فضربها بالمدافع حوالي خمسة عشر يومًا، ثم غادر البحر الأحمر عائدًا إلى الهند في أول شهر جمادى الثانية سنة ٩١٩هـ/ آب ١٥١٣م[٨١].

وكان البوكيرك عقب استيلاءه على هرمز ومسقط، توجت أنظاره مرة أخرى إلى عدن، التي كان الاستيلاء عليها يعتبر من أهم دوافع حملته التي جاء من أجلها من البرتغال، لذلك فقد غادر في شهر محرم ٩٢١هـ/ شباط ١٥١٥م مقر حكمه جوا على رأس حملة كبيرة نحو البحر الأحمر لاحتلال عدن ومهاجمة الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز، غير أن انتفاض هرمز ضد البرتغاليين جعله يتوجه رأسًا إليها ويؤجل شأن عدن إلى حين، إلا أن المنية عاجلته أثناء ذلك[٨٢].

وهكذا كانت محاولة البوكيرك غزو البحر الأحمر في محرم ٩٢١هـ/ شباط ١٥١٥م، أخر التهديدات البرتغالية لبلاد العرب والمسلمين في البحر الأحمر والخليج العربي، ولمصالحهم التجارية في مياه المحيط الهندي في عهد السلطان الغوري، وشكل موت البوكيرك المفاجئ ضربة قاصمة للملك البرتغالي عمانويل الأول لما أبداه البوكيرك من تهديد قوي للمسلمين في الهند والبحر الأحمر، وتبنيه مشروع تدمير المقدسات الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، في حين شكل موت البوكيرك بارقة أمل للعرب والمسلمين في الهند والخليج العربي ومصر بتراجع حدة التهديد البرتغالي لهم.

أما عن دوافع البرتغاليين من مد نفوذهم إلى البحر الأحمر ومحاولاتهم المتكررة للسيطرة عليه في عهد السلطان الغوري، فيمكن إرجاعها إلى ما يلي:

١. رغبتهم في احتكار تجارة الشرق ومن ثم إنهاء دور العرب والمسلمين في تجارة التوابل، وخنق اقتصادهم بإغلاق منافذ التجارة العربية، وذلك أن التجارة بين الشرق والغرب كانت من أقدم الأزمنة تسلك طريق البحر الأحمر ومصر، وكان المستفيد الأكبر من تلك التجارة هما دولتي المماليك والبنادقة، لذا تطلع البرتغاليون إلى كسر ذلك الاحتكار من خلال تحويل تجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح ومنها إلى لشبونة ليتم تسويقها في دول أوروبا، وتتضح هذه الرغبة بشكل جلي في رد الملك البرتغالي عمانويل على نداء البابا يوليوس قيصر سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، الذي طلب منه الحد من الحملات إلى المحيط الهندي بهدف إنجاح الجهود الرامية

إلى تحسين علاقات دول أوروبا مع سلطنة المماليك، إذ أجابه عمانويل قائلاً: "لست عازمًا فقط على خنق التجارة المملوكية، بل سأجاهد في سبيل المسيحية حتى أجعل من مكة هدفًا لمدافعي وجنودي"[٨٣].

٢. كان البرتغاليون يعتزمون من دخول البحر الأحمر تنفيذ مخطط صليبي، يقوم على استيلائهم على جدة ثم الزحف منها على مكة المكرمة، ثم المدينة المنورة، وتدمير المقدسات الإسلامية فيها، ونبش قبر الرسول (ﷺ)، ثم استئناف زحفهم إلى تبوك ومنها إلى بيت المقدس للاستيلاء على المسجد الأقصى[٨٤]. ولعل مما يؤكد ذلك قبض أمير مكة على ثلاثة جواسيس برتغاليون سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، كانوا يحومون حول المسجد الحرام، وبعد التحقيق معهم اعترفوا أنهم قدموا ليعملوا جواسيس وأدلاء للجيش البرتغالي الصليبي عند دخولهم مكة، وقد أرسل بهم أمير مكة إلى السلطان الغوري في مصر لينزل بهم ما يستحقون من عقاب[٨٥].

٣. تحويل المسلمين في الجزيرة العربية ومصر وأينما وجدوا إلى المسيحية، ويشير إلى ذلك المؤرخ المسلم المعاصر المليباري بقوله: "ثم أن بغيتهم العظمى، وهمتهم الكبرى قديمًا وحديثًا تغيير دين المسلمين، وإدخالهم في النصرانية نعوذ بالله من ذلك"[٨٦].

## ثالثًا: جهود السلطان قانصوه الغوري في مواجهة الأطماع البرتغالية في البحر الأحمر

اعتلى السلطان قانصوه الغوري عرش السلطنة المملوكية في مصر سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م)، وكانت البرتغال قبل وصول الغوري قد اكتشفت رأس الرجاء الصالح سنة (٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م)، كما أنها كانت قد تمكنت من خلال فاسكو دي غاما من الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول رأس الرجاء الصالح سنة (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م)، ومنذ أواخر سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) كان البرتغاليون قد بدأوا بالفعل بإغراق السوق الأوروبية بالتوابل وغيرها من حاصلات الشرق بثمن يعادل ربع ثمنها في موانئ مصر، فمثلاً في الوقت الذي بلغ فيه ثمن قنطار الفلفل في الإسكندرية ٨٠ بندقيًا، صار يباع في لشبونة البرتغالية بعد الكشف الجغرافي بسعر تراوح بين ٢٠ و٤٠ بندقيًا[٨٧].

ونتيجة للكشوف البرتغالية وسيطرتهم على تجارة الهند، بدأت تجارة مصر الخارجية بالتدهور التدريجي، وكان السلطان الغوري قد لجأ في محاولة منه لحل أزمة مصر المالية في بداية عهده بفرض رسوم جديدة على تجارة الوارد والصادر في موانئ الإسكندرية ودمياط[٨٨]، فامتنع نتيجة ذلك التجار الأوروبيون عن التصدير عبر موانئ مصر، وهذا ما أحدث خلل في الميزان التجاري المصري، إذ أن التوابل غدت مكدسة في الإسكندرية ودمياط بعد أن قل المشترين، ويصف ابن إياس ما وصلت إليه حالة التعطل في موانئ مصر سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م)، بقوله إن :"بندر الإسكندرية خراب ولم تدخل إليه القطائع في السنة الحالية، وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار في بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحوًا من ست سنين، وكذلك جهة دمياط"[٨٩].ولم يكن التجار البنادقة الذين كانوا يقومون بدور الوساطة التجارية بين الشرق والغرب أقل تأثرًا من مصر، جراء اكتشاف البرتغاليين للطريق الجديد بين الشرق والغرب، فأخذ البنادقة بتحريض السلطان الغوري على حرب البرتغاليين وطردهم من الهند[٩٠]، هذا في الوقت الذي وصلت فيه نداءات الاستغاثة من ملوك الهند ومسلميها للسلطان الغوري يستصرخونه ضد الغزاة الجدد ويخبروه بأعمالهم المشينة بحق المسلمين مثل هتك حرمات المساجد، ونهب أموالهم، وإجبارهم على الردة[٩١]، هذا ناهيك عن انتهاج الجنود البرتغاليين القرصنة ضد السفن الإسلامية الدخلة والخارجة من البحر الأحمر، والتنكيل بالتجار العرب والمسلمين وقتلهم، وكانت سفن السلطان الغوري نفسه قد تعرضت للقرصنة والنهب[٩٢].

ورغم ما واجهه السلطان الغوري من بعض فتن العربان والجنود في مطلع عهده، علاوة على الأزمة الاقتصادية التي كانت تعصف بالدولة، فعندما تولى الغوري السلطنة كانت خزائن الدولة خاوية على عروشها، إلا أنه أولى خطر الغزو البرتغالي للهند والبحر الأحمر، وما ترتب على ذلك من حرمان مصر من المورد الأول لثروتها جل عنايته، وحاول معالجة هذا الخطر الذي أخذ يهدد سلطنته خاصة، وكيان المسلمين الديني والسياسي عامة، بإتباع أسلوبين؛ الأول سلمي من خلال الوسائل الدبلوماسية، والثاني عسكري من خلال المواجهة الحربية.

### ١/٣-جهوده السياسية

لجأ السلطان قانصوه الغوري في بداية الصراع مع البرتغاليين في البحر الأحمر ومياه المحيط الهندي إلى الوسائل الدبلوماسية، وذلك من خلال إرسال واستقبال السفارات مع

ملوك وأمراء أوروبا وبابا روما، والسلطان العثماني، وبعض حكام الولايات الإسلامية في الهند، حتى غدا بلاطه مسرحًا مليئًا بالوافدين والسفراء، وليس أدل على ذلك من قول ابن إياس إذ يذكر أنه اجتمع عند السلطان في أحد الأشهر "أربعة عشر قاصدًا، وكل قاصد من عند ملك على انفراده، فمن ذلك قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم.. وقاصد الملك محمود (ملك الهند).. وقاصد ملك الفرنج الفرانسة.. وقاصد البندقة.. وغير ذلك"[٩٣].

وبدأ الغوري جهوده الدبلوماسية بتنسيق موقفه مع البندقية أكبر شريك تجاري لمصر، فاستقبل سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٢م)، سفارة سرية للبندقية برئاسة بنديتو سانوتو (Bandetto Sanuto) الذي بين للغوري الأخطار التي تمثلها التجارة البرتغالية في الهند وأوروبا، واهتمام البندقية للتعاون مع مصر في مقاومة المشروعات البرتغالية في الهند، واقترح سانوتو على الغوري تخفيض أسعار التوابل، وخفض الرسوم الجمركية في الموانئ المصرية لإقناع التجار البنادقة بمواصلة نشاطهم التجاري في السوق المملوكية، ولكي يتمكنوا من منافسة خصومهم البرتغاليين في الأسواق الأوروبية[٩٤].

وأتبعت البندقية هذه السفارة، بسفارة أخرى سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٤م)، برئاسة فرانسيسكو تالدي (Fransisco Taldi)، نبهت من خلالها السلطان الغوري إلى ازدياد النشاط البرتغالي في الهند، وبيعهم التوابل في أوروبا بأرخص من أسعار مصر، وكان من أهم ما جاءت به هذه السفارة من اقتراحات، أن يغرق السلطان الغوري الأسواق بالتوابل حتى يستطيع منافسة البرتغال، وأن يستخدم نفوذه لدى أمراء الهند لقطع صلاتهم التجارية بالبرتغاليين، وأن ترافق سفن عسكرية السفن التجارية المملوكية لحمايتها[٩٥].

وبعد أن استمع السلطان الغوري إلى مخاوف البندقية، ارتأى أن يبعث برسالة إلى بعض الدول الأوروبية منها إيطاليا وإسبانيا لحث هذه الدول على وقف حملات البرتغال على الهند، وقام بحمل هذه الرسالة رئيس رهبان الفرنسيسكان بدير صهيون في بيت المقدس مورو دي سان برناردينو ( Mauro di San Bernurdion)، وقد وصل الموفد إلى البندقية أولاً وسلم صاحبها رسالة من السلطان لتقديم مساعدات عسكرية[٩٦]، ثم قصد روما وهناك التقى البابا يوليوس الثاني في ربيع (٩٠٩هـ/١٥٠٤م)، وأبلغه رسالة الغوري، ووعده البابا بالكتابة إلى ملك البرتغال لوقف إرسال الحملات الحربية للهند، ثم أتم الراهب مورو جولته في بلاط كل من أسبانيا والبرتغال، غير أنه عاد خالي الوفاض[٩٧].

ولما لم تأت جولة الراهب مورو إلى أوروبا أوكلها، عكف السلطان الغوري على رفع وتيرة لهجته في تعامله مع البابا يوليوس الثاني وملك البرتغال عمانويل، فقد أرسل إليهم في نفس العام (٩٠٩هـ/١٥٠٤م)، برسالة شديدة اللهجة يطلب منهم أن يكف البرتغاليون عن أعمالهم العدائية في مياه المحيط الهندي والبحر الأحمر، وإلا فإنه سيضطر إلى قتل كافة الفرنج في بلاده، وتدمير الأماكن المقدسة المسيحية وفي مقدمتها كنيسة القيامة[٩٨]. وفي الوقت الذي انزعج في البابا من تهديد السلطان الغوري، لم يبد ملك البرتغال أي اهتمام لذلك التهديد وطلب من البابا ألا يهتم لتهديدات الغوري لأنه ليست لديه القوة الكافية لتنفيذ التهديدات، ومما جاء في رد الملك عمانويل على نداء البابا الذي طلب منه الحد من الحملات البرتغالية على المحيط الهندي، قوله: لست عازمًا فقط على خنق التجارة المملوكية، بل سأجاهد في سبيل المسيحية حتى أجعل من مكة هدفًا لمدافعي وجنودي[٩٩]، كما أنه دعا البابا إلى ضرورة تكثيف جهوده في سبيل، ليس المصالحة مع سلطنة المماليك، وإنما في سبيل توحيد الدول والممالك المسيحية تحت قيادة البرتغال لاستعادة الأراضي المسيحية المقدسة في الشرق[١٠٠].

أدت فشل سياسة الوعيد والتهديد مع الملك البرتغالي، إلى أن يتجه السلطان الغوري للتجهز لمحاربة البرتغاليين الذين اشتدت وطأتهم في مياه المحيط الهندي وأوشكوا على الانتقال إلى مياه البحر الأحمر وتهديد كيان الدولة المملوكية تهديدًا مباشرًا، ولتأمين موارد إعداد الأسطول الحربي لجأ الغوري إلى رفع أسعار التوابل، وزيادة رسوم الجمارك في موانئه، غير أن قائد سفن البنادقة لم يمثل لقرارات الغوري وغادر ميناء الإسكندرية دون إذن مما عرض سفنه للضرب بنيران المدفعية، إلا أنه نجح في الإفلات، وعلى أثر ذلك قبض السلطان الغوري على قنصل البندقية وقناصل الدول الأخرى ورعاياهم بمصر وسوريا وأودعوهم السجن بعد أن تمت مصادرة متاجرهم[١٠١].

وبينما كان السلطان الغوري يتجهز للقيام بعمل عسكري ضد البرتغال في الهند، وصلت إليه الأنباء عن تدعيم البرتغال لأسطولها التجاري في الهند بسفن حربية للحماية، وهنا أدرك الغوري استحالة مقاومة البرتغال بمفرده، فرأى أن يتعاون مع البندقية وغيرها من الدول الأوروبية للقيام بعمل جاد لمواجهة الموقف المتدهور في الهند، فقرر إرسال بعثة إلى البندقية للمفاوضة في طلب المعونة العسكرية من أخشاب وسلاح،

وإعادة التجارة إلى ما كانت عليه لا سيما وأن إيراداته انخفضت بصورة كبيرة، وأوكل مهمة هذه السفارة إلى ترجمانه تغرى بردى الأسباني الأصل، الذي غادر القاهرة في ٩١٠هـ/ آذار ١٥٠٥م، على إحدى سفن البندقية، وكان في طريقه قد نزل بقبرص التابعة لمصر، واصطحب منها من أرشده إلى رودس حيث خاض فيها مفاوضات مع مقدم اسبتاريتها أمايري وامبوز ( Ameiry DAmboise)، بشأن وقف أعمال القرصنة والاعتداء التي يمارسها فرسان الإسبتارية ضد السفن الإسلامية والتجارية أثناء عبورها لمياه رودس[١٠٢]. ثم واصل تغرى برى طريقه إلى البندقية، وهناك انتهت المفاوضات إلى عقد اتفاق تجاري بين الدولتين تضمن عودة التجار البنادقة إلى موانئ مصر والشام، وإطلاق صراح السجناء البنادقة في مصر، وتحديد سعر التوابل وتخفيف الرسوم الجمركية، أما عن تقديم المساعدة العسكرية، فقد اعتذر البنادقة خوفًا من تأليب الرأي العام الأوروبي ضدهم[١٠٣].

وبعد البندقية استأنف تغرى برى رحلته إلى روما وبعض دول أوروبا، ثم عاد إلى القاهرة سنة ٩١٢هـ/ أيلول ١٥٠٧م، بعد أن استغرقت رحلته ثمانية عشر شهرًا، دون أن يحقق غرضًا ايجابيًا سوى إسماع صوت سيده الغوري للمسئولين في روما وأوروبا، وقد عزا تغرى بردى فشل مهمته إلى موقف البنادقة ذي الوجهين من طلبات السلطان، مما جعله يوغر صدر سيده عليهم، وبالفعل اتخذ الغوري إجراءات قاسية بحقهم[١٠٤].

ولتنشيط حركة التجارة في موانئ مصر، وتوفير مورد لبناء الأسطول الحربي، لجأ الغوري إلى توثيق علاقاته السياسية والتجارية بمملكة فلورنسا، فقد أرسل إليهم سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م، رسالة مع ترجمانه تغرى بردى تضمنت قرارًا يقضي بالترخيص للفلورنسيين بدخول موانئ مصر والشام، ومنحهم الرعاية والحماية، وفي عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، وقع السلطان الغوري مع فلورنسا اتفاقية نصت على إنشاء قنصلية دائمة لهم في القاهرة، ومنحهم موسمًا تجاريًا بالإسكندرية، مع معاملة التجار الفلورنسيين معاملة خاصة في مصر[١٠٥]، ومما جاء فيها "لا أحد يعترض عليكم، أو يزعجكم، أو يضايقكم"[١٠٦]. وفي أعقاب هزيمة الأسطول المملوكي في معركة ديو[١٠٧] البحرية سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م)، ورأى السلطان الغوري أن احتياطيه من المال والسلاح يتناقص، أصدر أوامره بالقبض على تجار البنادقة في مصر وسجنهم بالقاهرة، وبين لهم أن حريتهم مرهونة بمساعدة جمهوريتهم لمصر حربيًا في الهند، ولما بلغ البندقية ما حدث سارعت في إبداء استعدادها لمساعدة السلطان الغوري حربيًا في الهند بما تستطيع[١٠٨].

ولما اشتد الخطب بالسلطان الغوري أيضًا بعد هزيمة ديو البحرية، وعكف على تجهيز حمله جديدة لحرب البرتغاليين والتصدي لخطرهم في البحر الأحمر، لم يجد مفرًا من الاستعانة بالسلطان العثماني بايزيد الثاني[١٠٩](٨٨٧-٩١٨هـ/ ١٤٨١-١٥١٢م)، طالبًا منه أن يبيعه ما يلزم من أخشاب وعتاد، ومناشدًا إياه مساعدته في العمل على المحافظة على المقدسات الإسلامية في الحجاز، وقد وجد السلطان الغوري في السلطان العثماني خير معين، فقد أرسل إليه في جمادى الثانية سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، ثماني عشرة سفينة محملة بالأخشاب والعتاد، غير أن هذه السفن تعرضت للهجوم من قبل فرسان الإسبتارية في جزيرة رودس وهي في طريقها لمصر، بعد أن تأكدوا أن الشحنة من السلاح والخشب معدة لحرب البرتغاليين، ولم يصل منها للإسكندرية سوى سفينة واحدة خاوية، وشكلت هذه الحادثة كارثة بالنسبة للسلطان الغوري الذي "تنكد إلى الغاية وامتنع عن الأكل يومين"[١١٠].

وقابل السلطان الغوري هذا الخطب بإلقاء القبض على جميع التجار الفرنج المقيمين بالإسكندرية ودمياط، وأجبر مطران دير جبل صهيون على دفع غرامة قدرها أربعة آلاف دوكات، كما أنه نكل بالبنادقة لظنه أنهم هم من وشوا بأمر هذه السفن لفرسان الإسبتارية[١١١]. وعاد السلطان الغوري بعد عدة أشهر بإرسال موفد جديد للسلطان العثماني بايزيد الثاني وهو "يونس العادلي" لشراء الأخشاب والسلاح، فما كان من السلطان بايزيد إلا أن أسرع في تأمينه بما يحتاج من بنادق وبارود وأخشاب ونحاس وحديد وحبال ومراسي وغير ذلك مما يحتاج إليه في بناء السفن، وكان السلطان بايزيد أرسل كل ذلك معونة منه رافضًا أخذ المال[١١٢].

وتكررت تلك المساعدات العسكرية العثمانية لمصر طوال عهد السلطان بايزيد الثاني، مما يشير إلى تميز العلاقات العثمانية المملوكية بحسن الجوار خلال تلك الفترة، إلا أنه في عهد السلطان سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ/ ١٥١٢-١٥٢٠م)، ساءت العلاقات بين البلدين بسبب استيلاء السلطان سليم على إمارة دلغادر المشمولة بحماية سلطنة المماليك، واتهام السلطان سليم للغوري بالتواطؤ مع الدولة الصفوية الشيعية أثناء الحرب التي نشبت بين الدولتين العثمانية والصفوية لتصفية ما بينهما من مشاكل مذهبية وسياسية سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م)[١١٣].

وفضلاً عن أخطار الفرسان الإسبتارية في رودس الذين أعاقوا جهود مصر ضد البرتغاليين في مياه الهند والبحر الأحمر، بلغ تآمر الفرنج على المماليك ذروته في هذه الأثناء، إذ حدث في شهر جمادى الأولى سنة ٩١٦هـ/ أيلول ١٥١٠م، أن قبض أحد رجال الغوري على رجل من قبرص يرافقه فارس، يحملان معهم خطابات من الشاه إسماعيل الصفوي لقنصلي البنادقة في دمشق والإسكندرية للاستعانة بدولة أوروبية للقيام بهجوم بحري على سواحل مصر، في حين تقوم الدولة الصفوية بمهاجمتها برًا، وقد زادت هذه الحادثة من الوحشة بين الغوري والبنادقة، فقبض على القنصلين وسجنهما في القاهرة، كما أنه نفذ تهديده الذي طالما ردده وهو قفل الأماكن المقدسة المسيحية، إذ أغلق كنيسة القيامة وصادر محتوياتها[١١٤].

ويبدو أن تنكيل السلطان الغوري بالبنادقة والتجار الفرنج في موانئ مصر، ومصادرتهم أموالهم، وإغلاقه كنيسة القيامة قد أتت أوكلها، فقد وصلت إلى القاهرة في شهر محرم ٩١٨هـ/ آذار ١٥١٢م سفارة من قبل ملك فرنسا لويس الثاني، وقد تمحورت مباحثات السفير الفرنسي مع السلطان الغوري حول فتح كنيسة القيامة، ووقف هجمات فرسان رودس، ومنح الفرنسيين تسهيلات تجارية في أراضي الدولة المملوكية، لكن على ما يبدو أن هذه السفارة لم تنجح إلا في إطلاق سراح بعض الأسرى الفرنسيين[١١٥]. وما أن انتشرت أنباء وصول البعثة الفرنسية للقاهرة، حتى أسرعت البندقية بدورها إلى إرسال مبعوث من قبلها للقاهرة في ربيع الأول ٩١٨هـ/ أيار ١٥١٢م، وهو دومينكو تريفزاني (Domenico Trevisani) كسفيرًا ومندوبًا فوق العادة، وقد نجح تريفزاني في مهمته على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، إذ تمكن من إقناع السلطان من براءة دولته من تهمة التآمر مع الدولة الصفوية ضده، وإطلاق سراح البنادقة المسجونين في مصر، وفتح الموانئ المصرية أمام التجار البنادقة، هذا إلى جانب تعهده بتزويد مصر بالأسلحة والأخشاب[١١٦]. وهكذا أعيدت العلاقات بين مصر والبندقية بعد فترة من الوحشة والمخاصمة.

وفي خطوة منه لكسب تأييد الدول الأوروبية، وعطفهم لمصر، ودعمها ضد البرتغال، أصدر السلطان الغوري في شهر محرم ٩١٩هـ/ آذار ١٥١٣م، مرسوم ينص على إعفاء جميع طوائف الرهبان المسيحيين من دفع الرسوم المقررة التي كانت تجبى منهم عند دخولهم فلسطين، وعند زيارتهم لكنيسة القيامة وغيرها من الأماكن المقدسة، ومنع التعرض لهم بأذى أو بمكروه[١١٧]. هذا ولم تشهد السنوات الثلاث الأخيرة من عهد الغوري نشاط دبلوماسي على المستوى الأوروبي، ويبدو أن هيمنت البرتغال على تجارة الشرق، وإفشالها لكل تدابير السلطان الغوري فيما يتعلق بمحاولة إفساده العلاقات التي نشأت بين البرتغال وأمراء مراكز إنتاج التوابل في الهند مثل مملكة كنانور ومملكة كوشين، هذا ناهيك عن نجاح البرتغال في استقطاب سفن التجار الفلورنسية والجنوية والألمانية للسفر إلى الهند تحت لواء البرتغال مقابل حصة معينة من حمولاتها[١١٨]، قد دفع الغوري إلى توقيف الجهود الدبلوماسية مع الأوروبيين، والتفرغ لتوثيق علاقاته مع الممالك الهندية سواء الإسلامية منها أو الهندوسية، لمجابهة البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي عسكريًا.

### ٢/٣-جهوده العسكرية

بعد أن فشلت جميع الجهود الدبلوماسية التي بذلها السلطان الغوري في وقف تجرم البرتغاليين العدائي في مياه بحر الهند، وإغلاقهم منافذ التجارة مع مصر، بل وارتفاع مستوى تهديداتهم العدائية بالدخول إلى البحر الأحمر وتدمير المقدسات الإسلامية، وما رافق ذلك من وصول نداءات الاستغاثة من ملوك الهند مثل الزامورين حاكم كاليكوت، ومحمود بيكر مظفر شاه حاكم كجرات[١١٩]، ومن مسلمي الهند الذين كشفوا له كثيرًا من أعمال البرتغاليين الوحشية ضد المسلمين في الهند مثل "هتك حرمات المساجد، وتحريضهم على قبول الردة والسجود لصليبهم"[١٢٠]، واصطحابهم للرهبان للتبشير بالمسيحية وللقضاء على الدين الإسلامي، الأمر الذي يوحي بأن هذه الأعمال ما هي إلا لونًا جديدًا من الحروب الصليبية، ومقدمة مشئومة لاستعمار الشرق، فقد كانت مراكبهم وهي تمخر عباب بحر الهند، شعارها الصلبان والمدافع[١٢١]. ووصلت كذلك تحذيرات من حكام اليمن الطاهرين، تشير إلى اقتراب البرتغاليين من سواحل بلادهم، وفي ذلك يقول ابن الديبع :"قويت شوكة المفسدين في قطع طرق المسلمين في البحر بطريق الهند وهرمز .. واستحلوا دماء المسلمين .. فبعث أهل مدينة عدن الخبر إلى السلطان الغوري يستطيعونه على الفرنج"[١٢٢]. وسبق ذلك كله وصول الأخبار إلى القاهرة بازدياد أعمال القرصنة ضد السفن الإسلامية في مياه المحيط الهندي وبحر العرب ومن ذلك مهاجمة فاسكو دي غاما أمام ساحل المليبار سفينة كبيرة مملوكة للسلطان الغوري كانت محملة بالتوابل وعليها عدد من الحجاج الهنود في طريقهم إلى جدة، وبعد معركة شديدة بينها وبين قوات دي غاما استقرت السفينة في قاع البحر بمن عليها بعد أن نهبت حمولتها[١٢٣]. كما وصلت في هذه الأثناء سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م، بعثة

السفير البندقي تالدي للقاهرة، والذي اقترح على السلطان الغوري اتخاذ إجراء سريع وجدي ضد البرتغال في بحر الهند، من خلال القيام بعمل حربي يضع البرتغاليين عند حدهم[١٢٤].

أمام هذه التحديات والتطورات المتسارعة وجد السلطان الغوري أنه لم يعد هناك مجال للفرار أو التأجيل، فقرر الاتجاه نحو القوة الحربية لعلاج الموقف، فجهز في الحال أسطولاً حربيًا قويًا تكون من خمسين سفينة من نوع الأغربة[١٢٥]، بنيت في دار صناعة السويس، وأوكل قيادتها للأمير "حسين الكردي[١٢٦]"، وكان السلطان الغوري قد استعرض هذا الأسطول بنفسه، واحتفل وقت نزوله للبحر احتفالاً شعبيًا مطلع جمادى الثانية سنة ٩١١هـ/ تشرين أول ١٥٠٥م، ويذكر ابن إياس أن العسكر الذين خرجوا في هذه الحملة نحو الهند تكون من جنسيات مختلفة؛ فكان بينهم أبناء الأمراء المتطوعين، والمماليك السلطانية، والمغاربة والعبيد السود والتراكمة، وجعل الغوري على قيادة المغاربة وحدهم الخواجا "نور الدين علي المسلاتي المغربي"، وأرسل بصحبة الحملة الكثير من البنائين والنجارين المهرة ببناء الأبراج، وقبل إقلاع الحملة صرف الغوري لجميع المشاركين فيها رواتب أربعة أشهر مقدمًا، وفي يوم الاثنين ٦ جمادى الثانية سنة ٩١١هـ/ ١٥ تشرين أول، أبحر الأسطول المملوكي من السويس إلى جدة[١٢٧].

وما أن بلغت الحملة مدينة جدة التي كانت من أهم مراكز التجارة بين مصر والهند، حتى اتخذت منها قاعدة لها، وعمل الأمير حسين الكردي هو ورجاله على تحصين المدينة من خلال بناء الأسوار والأبراج، كما أخذ في نفس الوقت بمراقبة الطريق إلى الهند وتفتيشه، وتعقب البرتغاليين فيه ومقاومتهم[١٢٨]، فقد كان الأسطول البرتغالي بقيادة البوكيرك في هذه الأثناء قد استولى على جزيرة سوقطرة التي تشرف على مدخل البحر الأحمر، ثم عبر باب المندب وأغار على ميناء عدن، ومنها تحول إلى سواكن[١٢٩]، وكان ينوي الزحف منها نحو جدة، غير أنه ما أن علم بوجود هذا الأسطول المصري الضخم في ميناء جده حتى سارع بالانسحاب من مياه البحر الأحمر نحو الهند[١٣٠]. وأثناء تواجد الأسطول المملوكي في جدة حدث أن وقعت الشحناء بين القائد حسين الكردي والخواجا نور الدين المسلاتي، ويبدو أن التنافس على زعامة الحملة كان وراء ذلك الخلاف الذي أخر الحملة فترة من الزمن، ولم ينته ذلك الخلاف إلا بتدخل السلطان الغوري عندما أرسل قوة من القاهرة قبضت على المسلاتي وأعادته إلى مصر[١٣١].

وفي شهر ذي الحجة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م، أبحر الأسطول المملوكي من جدة في طريقه للهند، فمر بطريقه بسواكن فاستولى عليها دون قتال، ثم تابع مسيره حتى وصل جيزان[١٣٢] فتزود منها بالطعام، ثم توجه إلى جزيرة كمران، ومنها سار إلى عدن فاستقبلهم أميرها "مرجان الظافري"، وسمح لهم بأن يأخذوا من عدن ما يشاءون من طعام وماء وحطب وغير ذلك من المؤن[١٣٣]. وبعد أن أتم الأسطول تزوده بما يحتاج أقلع من عدن متوجهًا إلى الهند، فوصل أولاً إلى ميناء ديو أحد أهم موانئ سلطنة كجرات، حيث انضمت إليه سفن "مالك إياس" حاكم ديو، وكان الأمير حسين الكردي ومالك إياس قد اتفقا مع الزامورين حاكم كاليكوت على أن يسيرا إليه في كاليكوت لتوحيد جميع قواهم في حملة واحدة للقضاء على البرتغاليين في ساحل المليبار وطردهم نهائيًا من الهند، وفي أثناء الطريق تقابل الأسطول المملوكي والكجراتي بأسطول برتغالي صغير بالقرب من ميناء شول[١٣٤] (Chaul)، كان بقيادة ابن نائب ملك البرتغال في الهند لورنزو دي الميدا (Lourenco deAlmeyda)، واشتبك الأسطولان في خريف ٩١٣هـ/ ١٥٠٨م، في معركة بحرية متقطعة استمرت ليومين، انتصر فيها الأسطول المملوكي وحليفه الكجراتي وقتل فيها القائد البرتغالي لورنزو، وبعد هذا الانتصار عاد الأسطولان المصري والهندي إلى ميناء ديو لإصلاح ما تضرر من سفن وانتظار انتهاء موسم الشتاء[١٣٥]، وهناك التحقت بهم سفن الزامورين حاكم كاليكوت ليصبح عدد قطع الأسطول حوالي مائة سفينة صغيرة وكبيرة[١٣٦].

هذا وقد أحدث خبر الانتصار على الأسطول البرتغالي في معركة شول فرحة كبيرة في مصر، وأمر السلطان الغوري ابتهاجًا بهذه المناسبة دق الموسيقات ثلاثة أيام متتالية، يقول ابن إياس: "جاءت الأخبار بأن العسكر الذي توجه إلى نحو بلاد الهند .. قد انتصر على الفرنج وغنم منهم غنائم كثيرة، فسر السلطان لهذا الخبر وأمر بدق الكوسات فدقت ثلاثة أيام متوالية"[١٣٧]. وعقب وصول الأمير حسين الكردي إلى ديو بعد الانتصار في شول، أرسل للسلطان الغوري طالبًا دعمه بالجنود والسفن الحربية ليعزز بها قواته ضد البرتغاليين، وهذا ما دفع الغوري لتكثيف جهوده في سبيل بناء المزيد من السفن الحربية، فاستعرض في شهر شعبان (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)، ستًا من السفن الحربية كانت الترسانات قد انتهت منها[١٣٨].

أما بالنسبة للبرتغاليين فقد استشاطوا غضبًا لهذه الهزيمة، ولا سيما نائب الملك البرتغالي في الهند الذي أقسم أن ينتقم انتقامًا شديدًا لمقتل ابنه، فاستغل لجوء الأسطول

المملوكي إلى ميناء ديو للراحة والتموين، وفاجأهم هناك بهجوم كاسح في ٢٦ صفر ٩١٥هـ/ ٣ شباط ١٥٠٩م، محققًا عليهم نصرًا حاسمًا في معركة شهيرة عرفت باسم معركة ديو البحرية، دمرت فيها معظم السفن المماليكية والهندية، وقتل فيها معظم عساكر الأسطول المصري، أما حسين الكردي فقد استطاع أن ينجو بنفسه رغم إصابته، فلجأ مع ما تبقى من أسطوله إلى سلطنة كجرات، ثم انسحب بعد ذلك عائدًا إلى جدة[١٣٩]. وبهزيمة الأسطول المملوكي وانسحابه عن المياه الهندية، ازدادت قوة البرتغاليين في الهند، ونشطت تجارتهم واتسعت أملاكهم، وهذا ما شجعهم على فرض حصار شديد على جميع السفن الهندية المتجهة نحو البحر الأحمر، وقد تمكنوا فعلاً من قطع الاتصال البحري بين الموانئ الهندية وجدة، وأخذوا بملاحقة السفن المملوكية في الخليج العربي والبحر الأحمر ومصادرة شحناتها[١٤٠].

أما حكام الإمارات الهندية؛ كجرات وديو وكاليكوت وغيرهم، فعندما وجدوا أنفسهم لوحدهم في مواجهة البرتغاليين بعد انسحاب الأمير حسين الكردي عائدًا إلى جدة، رأوا أن من مصلحتهم الخاصة مصالحة البرتغاليين، فأرسلوا رسلهم إلى نائب الملك البرتغالي في الهند الذي لم يترد في اجابة طلبهم[١٤١]. كما شجعت أخبار انتصار البرتغاليين على الأسطول المصري في معركة ديو، ملكة الحبشة "هيلانة" (Eleni) على التحالف مع البرتغاليين للقيام بعمل مشترك معهم للاستيلاء على الحجاز ومصر، ووفد على القائد البوكيرك الذي تولى في هذه الأثناء منصب نائب ملك البرتغال في الهند سنة (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م)، مبعوث من قبلها يدعى "ماثيوس" لهذه الغاية، غير أن البوكيرك أرسل هذا الموفد إلى لشبونة لبحث شأن التحالف بين الدولتين شخصيًا مع الملك البرتغالي، لكن على ما يبدو أن المفاوضات مع الملك البرتغالي أخذت وقتًا طويلاً فلم يتم الاتفاق على التحالف إلا في سنة (٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)[١٤٢]، أي بعد سقوط الدولة المملوكية في قبضة العثمانيين.

أما عن البندقية فلم تجد أمامها بعد هزيمة المماليك في معركة ديو، سوى الاتجاه إلى لشبونة كبقية دول أوروبا لتبتاع منها التوابل[١٤٣]، لكنها في الوقت نفسه ومن باب المحافظة على مصالحها الشخصية مع مصر احترازيًا لما قد يستجد في المستقبل، أرسلت للسلطان الغوري تبدي استعدادها لمعونته حربيًا لطرد البرتغاليين من الهند، لكنها كالعادة تحججت بأن موقفها في العالم المسيحي يمنعها من تقديم تلك المساعدة في الوقت الراهن[١٤٤].

أما في القاهرة فقد هزت تلك الهزيمة السلطان الغوري، يقول ابن إياس، جاءت الأخبار في شهر صفر سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م) "بأن العسكر الذي توجه إلى الهند.. قد كسر وهم الفرنج كسرة فاحشة، وقتلوا العسكر عن آخره.. فتنكد السلطان لهذا الخبر"[١٤٥]، ففي الوقت الذي تطلع فيه السلطان الغوري إلى نصر ينهي السيطرة البرتغالية في مياه المحيط الهندي وتهديدهم لتجارة البحر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية، جاءت تلك الهزيمة التي بددت أحلامه، واستهلكت الكثير من احتياطيه من الأموال والسلاح من جهة، وزادت من قوة البرتغاليين من جهة أخرى.

ومع ذلك لم ييأس السلطان الغوري بعد هزيمة ديو من توجيه ضربة حاسمة للبرتغاليين في الهند، أو على الأقل وقف خطرهم على التجارة الإسلامية في البحر الأحمر، وعلى الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز، من هنا فقد كلف الأمير حسين الكردي أن يحرص قبل عودته للقاهرة من تحصين جدة حتى لا يستولي عليها البرتغاليين في حال دخولهم البحر الأحمر، ومن ثم يغيرون منها على مكة المكرمة والمدينة المنورة[١٤٦]، فأحاطها الكردي سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) بسور شديد الإحكام من جوانبها الثلاث دون البحر، إذ بلغ طول السور من الجنوب ٨٠٠ ذراعًا، ومن الشمال ٨٠٠ ذراعًا، ومن الشرق ٦٠٠ ذراعًا، وعزز السور بأبراج بلغ ارتفاعها ١٥ ذراعًا، ثم أحاط السور والأبراج بالخنادق، أما أبواب المدينة فصنعت من الخشب المدرع المصفح[١٤٧]. واستعان الأمير حسين الكردي في توفير الموارد المادية اللازمة لبناء سور جدة وأبراجها بحلفائه سلاطين الإمارات الإسلامية في الهند، الذين استجابوا لطلبه بعد أن بين لهم أن سقوط جدة بيد البرتغاليين معناه تدمير المقدسات الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة[١٤٨]، وبعد أن انتهى الأمير حسين الكردي من تحصين جدة عاد للقاهرة فوصلها في شهر رمضان سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م)[١٤٩].

هذا ولم يقتصر اهتمام السلطان الغوري على تحصين مدينة جدة وحدها، بل أنه أنشأ كذلك حول مدينة ينبع[١٥٠] سورًا حصينًا وأبراجًا منيعة، كما بنى في مدينة العقبة عدة أبراج وفساق، وزودها بطائفة من الجنود للحراسة تتجدد مرة في كل عام[١٥١]. وإلى جانب تحصين ميناء جدة وغيرها من موانئ السلطنة المملوكية، كرس السلطان الغوري جهوده في هذه الأثناء لبناء أسطول بحري جديد للقيام بحملة عسكرية جديدة ضد البرتغاليين في المياه الهندية. وفي الواقع كان الغوري قد بدأ فعلاً في بناء الأسطول منذ سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)، عندما

بعث إليه الأمير حسين الكردي بعد معركة شول يطلب منه دعمه بالجنود والسفن ليعزز بها قواته ضد البرتغاليين؛ فابن إياس يذكر أنه استعرض في شعبان سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م)، ستًا من السفن البحرية من نوع الأغربة في ميناء رشيد كانت الترسانة قد انتهت منها[١٥٢].

وعندما يأس السلطان الغوري من الحصول على الأخشاب وغيرها من الأدوات اللازمة لبناء الأسطول الذي يجري إعداده في السويس من البندقية الذين تهربوا من إمداده بحجة خوفهم من العالم المسيحي[١٥٣]، أرسل يطلب العون من السلطان العثماني بايزيد الثاني الذي أجابه في الحال فأرسل إليه في جمادى الثانية سنة (٩١٦هـ/ ١٥١٠م)، حمل ثماني عشرة سفنية من الأخشاب وغيرها من المعدات اللازمة لبناء السفن، وعندما علم السلطان بايزيد تعرض هذه الشحنة للقرصنة من فرسان الإسبتارية والاستيلاء عليها جميعها قبل وصولها الإسكندرية[١٥٤]، أسرع بإرسال شحنة جديدة، حيث وصلت إلى ميناء بولاق في شهر شوال سنة (٩١٦هـ/ ١٥١١م)، عدد من السفن تحمل البنادق والبارود والأخشاب والنحاس والحديد والحبال والمراسي وغير ذلك مما يحتاج إليه في بناء السفن، وقد أرسل كل ذلك هدية منه رافضًا ثمنها[١٥٥]. وفي سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م)، عاد السلطان الغوري في إرسال موفد جديد من قبله للسلطان بايزيد ليبتاع منه مقادير من لوازم صناعة السفن من أخشاب ومكاحل نحاسية وحبال، فأرسلها إليه السلطان بايزيد هدية من عنده كالمرات السابقة[١٥٦]. وكانت دار الصناعة في مصر تصنع السفن لتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الإبل حيث يجري تجميعها وتركيبها على شاطئ البحر الأحمر[١٥٧].

وبينما كان الغوري مشغولاً ببناء الأسطول واستعراض ما يجهز منه، وصلت إليه صرخات الاستغاثة من ملوك الهند، يطلعونه على مراحل الغزو الصليبي الجديد، وعلى جرائم قراصنتهم بحق أملاكهم ومتاجرهم التي تعاظمت بعد انتصارهم على الأمير حسين الكردي[١٥٨]، كما وصلت إليه الأنباء سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م، توغل القائد البوكيرك إلى داخل البحر الأحمر، ومهاجمته مدينة عدن وسواكن، واستيلائه على جزيرة كمران، وأنه يعد العدة للهجوم على جدة والأماكن المقدسة الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة[١٥٩]. فبالنسبة إلى استجابة الغوري إلى طلب ملوك الهند، فقد رأى قبل القيام بأي عسكري ضد البرتغال، ضرورة إيجاد وحدة شاملة بين ملوك الهند ليضعوا أيديهم في يده لتوجيه ضربة قاصمة للبرتغاليين، فأرسل لهذا الغرض بعثة للهند برئاسة "الطواشي بشير"، وكان الطواشي قد نزل في طريقه باليمن وقابل هناك السلطان عامر بن عبد الوهاب[١٦٠](٨٩٤-٩٢٣هـ/ ١٤٨٨- ١٥١٧م)، سلطان الدولة الطاهرية، وعرض خطط السلطان الغوري فيما يتعلق بتوحيد الجهود معه ضد البرتغاليين، ثم واصل الطواشي رحلته للهند إلا أنه على ما يبدو لم يستطع تجاوز باب المندب بسبب الحصار الشديد الذي فرضه الأسطول البرتغالي عند مدخل البحر الأحمر[١٦١].

ولمواجهة خطر البوكيرك على جدة والأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز، سارع الغوري فور وصول خبر توغل البوكيرك في البحر الأحمر، بإرسال قائده البحري حسين الكردي في ربيع الأول سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) على رأس قوة مؤلفة من ثلاثمائة جندي إلى جدة للدفاع عنها حتى يتم تجهيز الحملة الكبيرة، وعين إلى جانب الكردي أمير مملوكي آخر يدعى "خشقدم"، زوده بقوة صغيرة فيها رماة البنادق والنفطية، تكون مهمتها كشف أخبار البرتغاليين وحماية الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة[١٦٢]. ولتسريع بناء الأسطول، كلف السلطان الغوري ثلاثون مملوكًا من طبقة الخاصة بالتوجه إلى السويس، وعين معهم جماعة من النجارين والحدادين والرماة بالبنادق والنفط، من أجل الإشراف على بناء السفن وتعجيل جهوزيتها[١٦٣].

ويذكر المليباري أن الأمير حسين الكردي ما كاد يصل جدة، حتى أرسل يحث السلطان الغوري على التعجيل بإرسال التجريدة درءًا للغزاة الذين ازداد عبثهم في سواحل الهند والبحر الأحمر حتى كادوا يغزون جدة نفسها[١٦٤]. وبعد معاناة مع الجند السلطانية الذين شاع بينهم العصيان في هذه اللحظات الحرجة، إلى جانب ثورات العربان في القاهرة وضواحيها، إضافة إلى انتشار مرض الطاعون في القاهرة ونواحيها[١٦٥]، استطاع السلطان الغوري في نهاية الأمر من تجنيد ستة آلاف جندي أغلبهم من البحارة العثمانيين والمغاربة والتركمان أما الباقي فقد كانوا من البيوت والفرق المملوكية المختلفة، وعندما استعرضهم أعطى كل مملوك منهم خمسين دينارًا، ووعدهم بأن يصرف لهم رواتب ستة أشهر مقدمًا قبل سفرهم[١٦٦].

وأخيرًا وبعد جهد استغرق قرابة خمس سنوات، ونفقات مالية تجاوزت أربعمائة ألف دينار، انتهى الغوري من إعداد الحملة البحرية الثانية لضرب القوات البرتغالية في الهند وصد هجماتهم في البحر الأحمر، وبعد أن استعرض جنودها في احتفال كبير يوم ١٠ رجب سنة ٩٢١هـ/ ٢٠ آب ١٥١٥م، أبحرت الحملة التي تكونت من عشرين سفينة من نوع الأغربة المزودة

بالمكاحل النحاسية والحديدية من ميناء السويس تحت قيادة "سلمان العثماني"، على أن يتولى قيادتها العامة الأمير حسين الكردي عند وصولها إلى جدة[١٦٧].

وفي يوم ١١ شوال سنة (٩٢١هـ/ ١٥١٥م)، أقلع الأسطول المملوكي من جدة إلى الهند بعد أن تولى قيادته الأمير حسين الكردي ويساعده سلمان العثماني، غير أنه قدر لهذه الحملة ألا تصل إلى هدفها النهائي الهند، بل أجبرتها الظروف التي واجهتها أمام السواحل اليمنية على التوقف عند عدن، وذلك أن الأمير حسين الكردي عندما وصل إلى ساحل اليمن وجد من الضروري قبل التوجه للهند، إقامة مجموعة من القواعد البحرية عند مدخل البحر الأحمر لمنع الأساطيل البرتغالية من دخوله من جهة، ولتكون هذه القواعد بمثابة نقطة انطلاق للحملات المملوكية المتجهة إلى المحيط الهندي من جهة أخرى[١٦٨].

ومن هذا الباب شرعت الحملة فور وصولها إلى جزيرة كمران في شهر ذي القعدة سنة (٩٢١هـ/ ١٥١٥م)، ببناء التحصينات والأسوار حول الجزيرة، كما كان الأمير حسين الكردي قد أرسل إلى سلطان اليمن عامر بن عبد الوهاب، يطلب منه مساعدته ومده بالمعونة من الماء والطعام، مذكرًا إياه بمكاتباته للسلطان الغوري في طلب النجدة، وكان السلطان عامر قد مال في البداية إلى إجابة طلب الكردي، غير أن أحد رجاله أشار عليه بعدم إجابته خشية أن يكون ذلك نوعًا من فرض السيادة السياسية المملوكية على اليمن، أو أن تتحول تلك المساعدة إلى جزية سنوية يطالب بها اليمن باسم محاربة البرتغال، فما كان من السلطان عامر إلا أن أخذ بتلك المشورة وأمر ولاته في الموانئ اليمنية بعدم تقديم الطعام للجند المماليك لإجبارهم على مغادرة كمران[١٦٩]، وردًا على ذلك قام الأسطول المملوكي بضرب ميناء الحديدة[١٧٠] بالمدافع، ثم نزلوا سواحلها وأخذوا ما يلزمهم من طعام ومن أخشاب وأدوات لازمة لبناء تحصينات كمران، وحدث في هذه الأثناء أن انظم أمراء كل من جيزان واللحية[١٧١] إلى الأسطول المملوكي بعدما أدركوا قوة الأسلحة التي يملكها الأسطول المملوكي من جهة، ولخلافهم السابق مع السلطان عامر بن عبد الوهاب من جهة أخرى، واتفقوا مع الأمير حسين الكردي على أن ينزلوا سوية في الأراضي اليمنية، وفعلاً شنوا جميعًا هجومًا كبيرًا على مدينة زبيد[١٧٢] فاستولوا عليها في يوم ١٩ جمادى الأولى (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)[١٧٣].

وبعد اقتحام الحملة المملوكية لمدينة زبيد وما قامت به من أعمال نهب وتخريب وسبي ومصادرة لأموال الأهالي والتجار[١٧٤]، توجهت إلى مدينة عدن، فوصلتها في ١٣ رجب ٩٢٢هـ/ آب ١٥١٦م، وتمكن المماليك في البداية من دخول مينائها، إلا أن حصانة المدينة الطبيعية، واستبسال أهلها في الدفاع عنها، أجبر المماليك على الانسحاب، فغادروها عائدين إلى جدة يوم ٢١ رجب ٩٢٢هـ/ ١٩ آب ١٥١٦م، ولا شك أن فشل الحملة في الاستيلاء على عدن، أدى إلى توقفها عن الذهاب إلى الهند، فقد رأى الأمير حسين الكردي أنه لا يمكن الابحار إلى الهند دون ضمان حماية البحر الأحمر، ووجد أن الأسلم للحملة العودة إلى جدة ومن ثم انتظار الفرصة لتحين ليعاود الهجوم مرة أخرى على عدن، غير أن الظروف لم تمهله فعند وصوله إلى جدة، كان السلطان قانصوه الغوري قد قتل في معركة مرج دابق سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)[١٧٥]، ثم أن أشراف مكة كانوا قد أعلنوا ولائهم للسلطان العثماني، فما كان منهم بعد وصوله إلى جدة إلا أن قبضوا عليه وأغرقوه في البحر انتقامًا منه لأعماله القاسية التي فرضها على أهل الحجاز وجدة أثناء بنايته لسورها وحصونها[١٧٦]. وعلى هذا شكلت عودة حسين الكردي إلى جدة ومن ثم مقتله، خاتمة الصراع الغوري مع الغزاة البرتغاليين في مياه البحر الأحمر وبلاد الهند.

وهكذا يلاحظ مما سبق، أن الغزو البرتغالي لسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر، وتهديدهم للمقدسات الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، شكلت الشغل الشاغل للسلطان الغوري في معظم فترات حكمه، وقد لجأ السلطان الغوري في بداية الأمر لمواجهة هذا الخطر بإتباع الوسائل الدبلوماسية، غير أنه عندما ثبت له فشل هذه السياسة اتجه نحو القوة العسكرية لمعالجة الموقف، فأرسل حملتين بحريتين كبيرتين لمواجهة هؤلاء الغزاة الجدد في الهند، كلفته كل واحده منها أكثر من أربعمائة ألف دينار، لكن كلا الحملتين لم توفق في تحقيق أهدافها، ففي الوقت تعرضت فيه الحملة الأولى لهزيمة ساحقة في معركة ديو البحرية سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٩م)، فشلت الحملة الثانية حتى في تجاوز باب المندب بسبب انشغالها بحرب الدولة الطاهرية في اليمن التي رفضت مد الحملة بالمؤن والمساعدات، فعادت إلى جدة دون تحقيق شيء يذكر. لكن مع ذلك يحسب للسلطان الغوري تزعمه للمقاومة الإسلامية التي ناضلت ضد الغزو البرتغالي لسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر، وتحصينه لمدينة جدة، الأمر الذي حال دون سقوطها بيد البرتغاليين، وبالتالي توفير الحماية للمقدسات الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

## خَاتِمَةٌ

نستخلص من هذه الدراسة التي تناولت جهود السلطان المملوكي قانصوه الغوري في التصدي للأطماع البرتغالية في البحر الأحمر عددًا من الحقائق، أهمها:

١. ما كاد السلطان قانصوه الغوري يلي أمر السلطنة المملوكية حتى أثبت أنه رجل قوي ذي فطنة ودهاء، فاستطاع خلال فترة وجيزة من حل مشكلة الدولة المالية، ثم واجه فتن وثورات الجند والعربان بكل حزم واقتدار، وعلى العكس من السلاطين الذين سبقوه فإن التهديد الذي عصف بملكه جاء من الخارج، وتمثل في خطرين؛ التهديد البرتغالي نتيجة اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح ودخولهم الهند وإغلاقهم مداخل البحر الأحمر، الأمر الذي حرم مصر من أهم موارد ثروتها وقوتها. وتمثل الخطر الثاني في الدولة العثمانية، الذين على أيديهم لقي حتفه، وزالت دولته.

٢. سعى البرتغاليون من محاولات سيطرتهم على البحر الأحمر وموانئه احتكار تجارة الشرق، ومن ثم إنهاء دور العرب والمسلمين في تجارة التوابل، وخنق اقتصادهم بإغلاق منافذ التجارة العربية، وذلك أن التجارة بين الشرق والغرب كانت قبل وصول البرتغاليين للهند تسلك طريق البحر الأحمر ومصر، وكان المستفيد الأكبر من تلك التجارة دولتي المماليك والبنادقة، لذا هدف البرتغاليون إلى كسر ذلك الاحتكار من خلال تحويل تجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح ومنها إلى لشبونة فأوروبا.

٣. كان البرتغاليون يعتزمون من دخولهم البحر الأحمر تنفيذ مخطط صليبي، يقوم على استيلائهم على جدة ثم الزحف منها على مكة المكرمة، ثم المدينة المنورة، وتدمير المقدسات الإسلامية فيها، ونبش قبر الرسول (ﷺ)، وجعله رهينة ليفاوضوا به المسلمين، مقابل تنازل المسلمين لهم عن الأماكن المقدسة المسيحية في القدس.

٤. لجأ السلطان قانصوه الغوري في بداية صراعه مع البرتغاليين في مياه المحيط الهندي إلى الوسائل الدبلوماسية، وذلك من خلال إرسال واستقبال السفارات مع ملوك وأمراء أوروبا وبابا روما، والسلطان العثماني، وبعض حكام الولايات الإسلامية والهندوسية في الهند، والتي هدف منها إلى وقف حملات البرتغاليين على الهند والبحر الأحمر، لكن جميع جهوده في هذا الشأن لم تجد نفعًا، بسبب عدم صدق الدول الأوروبية في وعودها وتغليبها مصالحها الشخصية على علاقاتها بالدولة المملوكية، كما أن بعض سلاطين الإمارات الهندية بعد هزيمة الأسطول المملوكي في موقعة ديو سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م)، فضلوا مصالحة البرتغاليين على نصرة مصر، في حين كان السلطان العثماني بايزيد الثاني الوحيد الذي أخلص في دعمه لمصر في صراعها مع البرتغاليين حرصًا منه على حماية الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز من خطر البرتغاليين.

٥. دخل السلطان قانصوه الغوري في صراعًا حربيًا عنيفًا مع البرتغاليين بهدف طردهم من الهند وبحر العرب والبحر الأحمر، فأرسل حملتين عسكريتين بحريتين كبيرتين إلى الهند، الأولى سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)، والثانية سنة (٩٢١هـ/ ١٥١٥م)، لكن كلا المحاولتين باءت بالفشل؛ لأن الأسطول البرتغالي كان أكثر قوة وتسليحًا وتدريبًا، وبحارته أكثر خبرة في الفنون الحربية من الأسطول المملوكي، فضلاً عن عرقلة الدولة الطاهرية في اليمن جهود السلطان الغوري في هذا الاتجاه من خلال رفضهم مد الأسطول المملوكي بالمعونة والمؤن، وعدم السماح لهم بالنزول في أراضيها وموانئها.

## الاحالات المرجعية:

(١) ابن العماد، شهاب الدين عبد الحي بن أحمد الحلبي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، المجلد العاشر، ط١، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق ١٩٩٣م، ص١٥٩. سيشار إليه فيما بعد: ابن العماد، شذرات الذهب.

(٢) اليمني، السيد محمد الشلي (ت١٠٩٣هـ/١٦٨٢م) **السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر**، ط١، تحقيق: إبراهيم بن أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء ٢٠٠٤م، ص١٤٦-١٤٧. سيشار إليه فيما بعد: اليمني، السناء الباهر.

(٣) ابن الحنبلي، رضي الدين محمد إبراهيم (ت ٩٧١هـ/١٥٦٣م) **در الحبب في تاريخ أعيان حلب**، الجزء الثاني، القسم الأول، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٣، ص٤٦. سيشار إليه فيما بعد: ابن الحنبلي، در الحبب؛ الطباخ، محمد راغب: **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، الجزء الخامس، ط١، المطبعة العلمية، حلب ١٩٢٥م، ص٣٩٠. سيشار إليه فيما بعد: الطباخ، أعلام النبلاء.

(٤) الغزي، نجم الدين محمد (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م) **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، ٣ أجزاء، ط٢، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٩م، جـ١، ص٢٩٤. سيشار إليه فيما بعد: الغزي، الكواكب السائرة.

(٥) ابن العماد، شذرات الذهب، مج١٠، ص١٥٩.

(٦) **طرسوس**: مدينة بثغر الشام، تقع بين أنطاكية وحلب. انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله البغدادي (ت. ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت (د.ت)، جـ٤، ص٢٨. سيشار إليه فيما بعد: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**.

(٧) **حلب**: مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات، وهي قديمة البناء من إنشاء العمالقة، تقع شمال غرب بلاد الشام على بعد ١٩٣ ميلاً عن دمشق. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٢، ص٢٨٢-٢٨٤.

(٨) ملطية: بلدة من بلاد الروم، تتاخم الشام وهي للمسلمين. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٥، ص١٩٢.

(٩) ابن إياس، محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م) **بدائع الزهور** في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦١م، جـ٤، ص٢. سيشار إليه فيما بعد: ابن إياس، **بدائع الزهور**.

(١٠) ابن العماد، شذرات الذهب، مج١٠، ص١٦٠؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢؛ المغلوث، سامي بن عبدالله: **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ط١، العبيكان للنشر، الرياض ٢٠١٣م، ص٢٣٨. سيشار إليه فيما بعد: المغلوث، **أطلس تاريخ العصر المملوكي**.

(١١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢؛ سليم، محمود رزق: **الأشرف قانصوه الغوري**، مكتبة مصر، القاهرة (د.ت)، ص٣٢. سيشار إليه فيما بعد: سليم، الأشرف قانصوه الغوري.

(١٢) الغزي، **الكواكب السائرة**، جـ١، ص٢٩٥؛ عزام، عبد الوهاب: **مجالس السلطان الغوري**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٤م، ص١٦. سيشار إليه فيما بعد: عزام، مجالس السلطان الغوري.

(١٣) الطباخ، **أعلام النبلاء**، جـ٥، ص١١٢.

(١٤) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٤.

(١٥) ابن الحنبلي، **در الحبب**، جـ٢، ق١، ص٤٧.

(١٦) الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الجزء الثاني**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (د.ت)، ص٥٥. سيشار إليه فيما بعد: الشوكاني، البدر الطالع.

(١٧) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٤.

(١٨) اليمني، **السناء الباهر**، ص١٤٧.

(١٩) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٠.

(٢٠) الشوكاني، **البدر الطالع**، جـ٢، ص٥٥.

(٢١) سليم، **الأشرف قانصوه الغوري**، ص٣٨-٤٠.

(٢٢) عاشور، سعيد عبد الفتاح: **الأيوبيون والمماليك** في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٦م، ص٢٩٥-٢٩٦. سيشار إليه فيما بعد: عاشور، **الأيوبيون والمماليك**؛ موير، وليم: **تاريخ دولة المماليك** في مصر، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٥م، ١٨٢. سيشار إليه فيما بعد: موير، **تاريخ دولة المماليك**.

(٢٣) هو سليم بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح، ولد في أماسية سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، وجلس على تخت السلطنة سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م، وعمره ستة وأربعون سنة، وكان سلطانًا قاهرًا كثير البطش، انتصر على الصفويين، واستحل سلطنة المماليك في مصر والشام وضمها لبلاده. انظر: النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد (ت. ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م) **كتاب الإعلام** بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، المكتبة التجارية، مكة المكرمة ١٩٩٦م، ص٢٧٧-٢٧٨. سيشار إليه فيما بعد: النهروالي: **كتاب الإعلام**.

(٢٤) **إمارة دلغادر**: تأسست في منتف القرن ٨هـ/١٤م، في المناطق المتاخمة لحدود الشام، واتخذت من مدينة مرعش عاصمة لها، ويعتبر زين الدين قراجا بن دلغادر المؤسس الحقيقي. انظر: أحمد، غزوة شهاب؛ أحمد، أحمد مولود: **إمارة دلغادر وعلاقتها الخارجية في القرنين الثامن والتاسع الهجري**، مجلة التراث العلمي العربي، ٣٨ع، السنة ٢٠١٨م، ص٣٥١. سيشار إليه فيما بعد: أحمد، إمارة دلغادر.

(٢٥) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٥، ص٢٨-٢٩؛ الزيدي، مفيد: **موسوعة التاريخ الإسلامي** العصر المملوكي، دار أسامة للنشر، عمان ٢٠٠٩م، ص١٤٥-١٤٦. سيشار إليه فيما بعد: الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**؛ عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص٣٠٤-٣٠٥؛ المغلوث، **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٤٦.

(٢٦) ابن زنبل، أحمد الرمال (ت٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م) **آخرة المماليك**، ط٢، تحقيق: عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م، ص١٠٢. سيشار إليه فيما بعد: ابن زنبل، آخرة المماليك.

(٢٧) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص١٠٣؛ ابن العماد، **شذرات الذهب**، مج١٠، ص١٦١؛ الشوكاني، **البدر الطالع**، جـ٢، ص٥٥.

(٢٨) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٥، ص٧٠.

(٢٩) ابن زنبل، **آخرة المماليك**، ص١٠٣.

(٣٠) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٥، ص٧١.

(٣١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٥، ص٧١.

(٣٢) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٦٥.

(٣٣) ابن العماد، **شذرات الذهب**، مج١٠، ص١٦٠-١٦١؛ سليم، **الأشرف قانصوه الغوري**، ص١٧٢-١٨٢؛ عودات، أحمد وآخرون: **تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري**، دار الكندي، أربد ١٩٩٠م، ص١٢٧. سيشار إليه فيما بعد: عودات، تاريخ المغول والمماليك.

(٣٤) الشامسي، أحمد محمد: **الصراع البرتغالي العثماني** في القرن السادس عشر، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة ٢٠١٣م، ص٥٧. سيشار إليه فيما بعد: الشامسي، **الصراع البرتغالي العثماني**.

(٣٥) لشبونة (Lisboa) عاصمة البرتغال، وهي مدينة بالأندلس، تقع غربي قرطبة على البحر المحيط. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٥، ص١٦.

(٣٦) الجوهري، يسرى عبد الرزاق: **الكشوف الجغرافية**، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧م، ص١٣١. سيشار إليه فيما بعد: الجوهري، الكشوف الجغرافية.

(٣٧) حراز، السيد رجب: **عصر النهضة**، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٤م، ص٣١٦. سيشار إليه فيما بعد: حراز، عصر النهضة؛ المغلوث، **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٣٦.

(٣٨) هو أحمد بن ماجد بن محمد السعدي النجدي، من أهل نجد، من كبار ربابنة العرب في البحر الأحمر وخليج البربر والمحيط الهندي وخليج بنجالة وبحر الصين، توفي بعد ٩١٥هـ/ ١٥١٠م. انظر: الزركلي، خير الدين: **الأعلام** "قاموس تراجم لأشر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين"، ٨ أجزاء، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢م، جـ١، ص٢٠٠. سيشار إليه فيما بعد: الزركلي، **الأعلام**.

(٣٩) **كاليكوت**: عاصمة المليبار وأهم مدنها الساحلية، وميناءها من أقدم موانئ الهند المعروفة منذ قديم الزمان. انظر: المليباري، أحمد زين الدين المعبري (ت٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) **تحفة المجاهدين** في أحوال البرتغاليين، ط١، تحقيق: محمد سعيد الطريحي، بيروت ١٩٨٥م، ص٢٠٠. سيشار إليه فيما بعد: المليباري، **تحفة المجاهدين**.

(٤٠) النهروالي: **البرق اليماني** في **الفتح العثماني**، أشرف على طبعه: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٩٦٧م، ص١٨-١٩. سيشار إليه فيما بعد: النهروالي، **البرق اليماني**؛ أحمد، ثامر عزام: الغزو البرتغالي للخليج العربي دراسة في الأسباب والنتائج، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، ع٢، تموز ٢٠٠٩م، ص١٨١. سيشار إليه فيما بعد: أحمد، الغزو البرتغالي.

(٤١) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٤٦.

(٤٢) السلمان، محمد حميد: **الغزو البرتغالي للجنوب العربي في الفترة ٩١٣-١٥٠٧هـ/ ١٥٢٥م**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين ٢٠٠٠م، ص٥١. سيشار إليه فيما بعد: السلمان، الغزو البرتغالي.

(٤٣) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٤٤) الشامسي، **الصراع البرتغالي العثماني**، ص٦٩.

(٤٥) **مدغشقر**: من أكبر جزر العالم، تقع في أقصى جنوب شرق سواحل أفريقيا، في الجزء الغربي من المحيط الهندي، وكان يقال عنها قديمًا أنها بلاد الواق واق. فهمي، نعيم زكي: **طرق التجارة الدولية** ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣م، ص١٧٦-١٧٧. سيشار إليه فيما بعد: فهمي، **طرق التجارة الدولية**.

(٤٦) صيرفي، نوال حمزة: **النفوذ البرتغالي** في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٣م، ص٨٩. سيشار إليه فيما بعد: صيرفي، **النفوذ البرتغالي**.

(٤٧) بانيكا، ك.م: **آسيا والسيطرة الغربية**، ترجمة: عبد العزيز توفيق، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢، ص٣٨-٣٩. سيشار إليه فيما بعد: بانيكا، آسيا والسيطرة الغربية؛ Villiers, Alan: The Indian ocean, London 1945, p134.

(٤٨) **السامري**: أو الزامورين، هي لفظة كان يعرف بها من يتولى أمور الحكم في بلاد المليبار، ويقيم في العاصمة كاليكوت، وهو غالبًا من الهندوس. انظر: المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص١٩٨.

(٤٩) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٤٧.

(٥٠) بانيكا، آسيا والسيطرة الغربية، ٣٩-٤٠؛ الشامسي، **الصراع البرتغالي العثماني**، ص٧٢.

(٥١) السلمان، الغزو البرتغالي، ص٥٣.

(٥٢) بانيكا، آسيا والسيطرة الغربية، ٤٠-٤١.

Sousa, Manuel de Faria: The History of the Discovery and Conquest of India by the Portugues, translated into English by: John Stevens, 3 Vol, London 1894, Vol 1, pp65-66.

(٥٣) موير، **تاريخ دولة المماليك**، ص١٨٤.

(٥٤) **كنانور**: من المدن المليبارية المهمة شمال المليبار على ساحل بحر العرب. انظر: المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص١٩٩.

(٥٥) **كوشين**: تقع إلى الجنوب من مملكة كاليكوت على ساحل البحر، يوجد بها نهر كبير عريض يصب في البحر منه تدخل السفن إلى داخل المدينة. انظر: القاسمي، سلطان بن محمد: **رحلة بالغة الأهمية** (المخطوطة الكاملة لكتاب دوراتي باربوزا ١٥١٦م)، دارة الدكتور سلطان القاسمي للدراسات الخليجية، الشارقة ٢٠١٧م، ص١٤٨. سيشار إليه فيما بعد: القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**.

(٥٦) السلمان، **الغزو البرتغالي**، ص٥٤.

(٥٧) ابن الديبع، عبدر الرحمن بن علي الزبيدي (ت. ٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م) **قرة العيون** بأخبار اليمن الميمون، ط٢، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مكتبة أبو ذر الغفاري، صنعاء ١٩٨٨م، ص٤٥٠. سيشار إليه فيما بعد: ابن الديبع، **قرة العيون**.

(٥٨) اليمني، **السناء الباهر**، ص٥٦.

(٥٩) Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, pp139-140.

(٦٠) الشامسي، **الصراع البرتغالي العثماني**، ص77.

(٦١) **سوقطرة** : جزيرة عظيمة تقع بالقرب من الساحل الجنوبي للجزيرة العربية قبالة عدن من الجنوب، وهي أقرب إلى بر العرب من بر الهند. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٣، ص٢٢٧.

(٦٢) هرمز: جزيرة إيرانية في الخليج، على مضيق هرمز، تربط الخليج ببحر عُمان. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٥، ص٤٠٢.

(٦٣) أحمد، الغزو البرتغالي، ص١٨٢.

(٦٤) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٠؛ السلمان، الغزو البرتغالي، ص٦٢.

(٦٥) النهروالي، **البرق اليماني**، ص١٩.

(٦٦) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٨؛ سليم، الأشرف قانصوه الغوري، ص١١٤.

(٦٧) العقاد، صلاح: **التيارات السياسية في الخليج العربي**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٤م، ص١٤-١٥. سيشار إليه فيما بعد: العقاد، التيارات السياسية.

(٦٨) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٥٤.

(٦٩) **قلهات**: مدينة بعُمان على ساحل البحر، إليها ترفأ أكثر سفن الهند. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**،جـ٤، ص٣٩٣.

(٧٠) أحمد، **الغزو البرتغالي**، ص١٨٢.

(٧١) رضوان، نبيل عبد الحي: **جهود العثمانيين** لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٩٨٧م، ص١٢٠. سيشار إليه فيما بعد: رضوان، **جهود العثمانيين**.

(٧٢) Miles. S. B,The Countries and Tribes of the Persian Gulf, Frank Cass & Co, London 1966, p153.

(٧٣) باحويرث، سماح سعيد: **أطماع البرتغاليين في بعض موانئ وجرر البحر الأحمر من خلال رحلة دوارتي باربوزا عام ٩٧٢/ ١٥١٦م**، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، مج٢٨، ع١٥، السنة ٢٠٢٠م، ص١٢٢. سيشار إليه فيما بعد: باحويرث، أطماع البرتغاليين.

(٧٤) Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, p188-189.

(٧٥) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٥٧-٤٥٨؛ Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, p190.

(٧٦) كمران: جزيرة يمنية تقع قبالة الساحل الغربي للصليف بمسافة ٦كم، وتبلغ مساحتها ١٠٠كم٢. انظر: **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٥١.

(٧٧) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٥٨؛ Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, p192.

(٧٨) سالم، سيد مصطفى، **الفتح العثماني** الأول لليمن (١٥٣٨-١٦٣٥م)، ط٥، دار الأمين للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة ١٩٩٩م، ص٨٩-٩٠. سيشار إليه فيما بعد: سالم، **الفتح العثماني**.

(٧٩) **زيلع**: هي من مدن الصومال الحالية، وصفها باربوزا بقوله هي:"بلدة مسلمة، حسنة البناء، مزدحمة التجارة، تأتي إليها السفن من مكان لبيع بضائعها، استولى عليها البرتغاليون سنة ١٥١٧م. انظر: القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**، ص٣٢.

(٨٠) **بربرة**: هي من مدن الصومال الحالية، وصفها ياقوت الحموي بقوله هي: "بلدة من بلاد الحبش والنوج واليمن، على ساحل بحر اليمن، وبحر الزنج". انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ١، ص٣٦٩-٣٧٠.

(٨١) صيرفي، **النفوذ البرتغالي**، ص١٢٢؛ الرمال، غسان علي: **صراع المسلمين مع البرتغاليين** في البحر الأحمرخلال القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة ١٩٨١م، ص١٥٢-١٥٣. سيشار إليه فيما بعد: الرمال، **صراع المسلمين مع البرتغاليين**؛ سالم، **الفتح العثماني**، ص٨٩؛ Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, p192-193.

(٨٢) سالم، **الفتح العثماني**، ص٩٠.

(٨٣) رضوان، **جهود العثمانيين**، ص١١٢-١١٣.

(٨٤) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص١٤٨؛ الشناوي، عبد العزيز محمد: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، جزءان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ٢٠٠٤م، جـ٢، ص٢٣. سيشار إليه فيما بعد: الشناوي، **الدولة العثمانية**.

(٨٥) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٩١.

(٨٦) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٦٣.

(٨٧) طرخان، إبراهيم علي: **مصر في عصر دولة المماليك** الجراكسة ١٣٨٢ – ١٥١٧م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٠، ص٢٩٣. سيشار إليه فيما بعد: طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**.

(٨٨) **دمياط**: مدينة قديمة تقع بين تنيس ومصر على زاوية بين البحر الأبيض المتوسط والنيل. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٢، ص٤٧٢.

(٨٩) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٣٥٩.

(٩٠) عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص٢٩٨.

(٩١) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٨-٢٦٢.

(٩٢)Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, pp65-66. )

(٩٣) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢٦٨-٢٦٩.

(٩٤) الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٧٣.

(٩٥) طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٢٩٥؛ Heyd, Histoire, p521-524.

(٩٦) دراج، أحمد السيد: **المماليك والفرنج** في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦١م، ص١٣٤. سيشار إليه فيما بعد: دراج، **المماليك والفرنج**.

(٩٧) طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٢٩٥.

(٩٨) الشامسي، **الصراع البرتغالي العثماني**، ص٩٥؛ موير، **تاريخ دولة المماليك**، ص١٨٤.

(٩٩) رضوان، **جهود العثمانيين**، ص١١٢-١١٣.

(١٠٠) دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٧٤-١٧٥.

(١٠١) فهمي، **طرق التجارة الدولية**، ص٨١-٨٢؛ دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٣٦.

(١٠٢) طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٢٩٦.

(١٠٣) الرمال، **صراع المسلمين مع البرتغاليين**، ص١٣٩؛ الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٧٦.

(١٠٤) فهمي، **طرق التجارة الدولية**، ص٨٦.

(١٠٥) الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٨١.

(١٠٦) ماجد، عبد المنعم: **التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك** في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨م، ص٣١٣. سيشار إليه فيما بعد: ماجد، **التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك**.

(١٠٧) ديو: جزيرة صغيرة في مياه الهند، تقع شمالي بومباي. **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٤٢.

(١٠٨) Heyd. W: Histoire du Commercedu Levant au Moyen Age, Leipzig 1925, p537.

(١٠٩) هو السلطان بايزيد بن محمد خان الغازي، ولد سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م، وتولى السلطنة سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨١م، وعمره ثلاثون عامًا، ومما افتتحه قلعة مروان وقلعة كوكلك، توفي سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م. انظر: النهروالي، **كتاب الإعلام**، ص٢٧٢-٢٧٧.

(١١٠) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٩٢.

(١١١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٩٢؛ دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٤٢-١٤٣.

(١١٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢٠١؛ Heyd, Histoire, p538-540.

(١١٣) سليم، الأشرف قانصوه الغوري، ص١٣٢؛ عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص٣٠٤-٣٠٥.

(١١٤) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٩١، ٢٠٥.

(١١٥) الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٨٣؛ طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٢٩٨.

See: Heyd, Histoire, p530.

(١١٦) فهمي، **طرق التجارة الدولية**، ص101-107؛ دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٥٢-١٥٣.

(١١٧) دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٥٤.

(١١٨) فهمي، **طرق التجارة الدولية**، ص٨٤.

(١١٩) **كجرات**: وتكتب كذلك جزرات، وهي من أشهر الولايات في شمال غرب الهند. انظر: المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥١.

(١٢٠) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٦٢.

(١٢١) ماجد، **التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك**، ص٣١٤.

(١٢٢) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٢٠٣.

(١٢٣) Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, pp65-66.

(١٢٤) Heyd, Histoire, p521-524.

(١٢٥) **الأغربة**: مفردها غراب، وسميت بذلك لأن رأسها يشبه الغراب، وهي سفينة كبيرة تستعمل في نقل الجند. انظر: **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٧١.

(١٢٦) هو الأمير حسين الكردي، لم يكن جركسيًا بل دخيلاً عليهم، كان أكولاً بذولاً للطعام، أرسله السلطان الغوري على رأس حملتين بحريتين لحرب البرتغاليين في الهند، وعلى يديه زالت الدولة الطاهرية من اليمن، وكان السلطان الغوري ولاه نيابة جده لإبعاده عن الجراكسة في القاهرة حماية له منهم، إذ كانوا لا يطيقونه، وكانت نهايته على يد شريف مكة سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، حيث قبض عليه بعد مقتل سيده السلطان الغوري، فاغرقه في البحر انتقامًا منه لسوء سيرته بأهل جده أثناء ولايته عليها. انظر: النهروالي: **كتاب الإعلام**، ص٢٦٢.

(١٢٧)ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٨٤-٨٥.

(١٢٨) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٨؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٨٤، ١٠٩.

(١٢٩) **سواكن**: جزيرة مشهورة تقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر قرب عيذاب، ترفأ إليها السفن القادمة من جدة. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٣، ص٢٧٦.
(١٣٠) دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٣٧.
(١٣١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١١٦.
(١٣٢) **جيزان**: تقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وكانت منزلاً للسفن النازلة من جدة عبر البحر الأحمر باتجاه عرض البحر، وكانت تشتهر بتربية الخيول. انظر: القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**، ص٣٧.
(١٣٣) الكبسي، محمد بن إسماعيل (ت١٣٠٨هـ/١٨٩٠م) **اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية**، ط١، تحقيق: خالد أبا زيد الأذرعي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء ٢٠٠٥م، ١٩٦-١٩٧. سيشار إليه فيما بعد: الكبسي، **اللطائف السنية**؛ سالم، **الفتح العثماني**، ص٧٨.
(١٣٤) **شول**: هو ميناء صغير على الساحل الغربي للهند، جنوب سلطنة كجرات، يشتهر بكثرة تجارة الصادر والوارد. انظر: القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**، ص٣٧.
(١٣٥) موير، **تاريخ دولة المماليك**، ص١٨٤؛ الرمال، **صراع المسلمين مع البرتغاليين**، ص١٣٠-١٣١؛ صيرفي، **النفوذ البرتغالي**، ص١٠٤.
(١٣٦) سالم، **الفتح العثماني**، ص٧٩.
(١٣٧) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٤٢.
(١٣٨) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٤٢.
(١٣٩) القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**، ص٦٧-٦٨؛ رضوان، **جهود العثمانيين**، ص١١٨؛ الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٨٧؛ طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٢٩٦-٢٩٧.
(١٤٠) دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٣٨.
(١٤١) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٣؛ سالم، **الفتح العثماني**، ص٧٩؛ القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**، ص٦٨.
(١٤٢) سالم، **الفتح العثماني**، ص٨٤؛ دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٣٨-١٣٩.
(١٤٣) صيرفي، **النفوذ البرتغالي**، ص١٠٢.
(١٤٤) Heyd, Histoire, p537.
(١٤٥) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٥٦.
(١٤٦) المغلوث، **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٤٣.
(١٤٧) النهروالي، **البرق اليماني**، ص١٩.
Serjeant. R.B: The Portuguese off The South Arabian Coast, London 1974, pp160-167.
(١٤٨) فهمي، **طرق التجارة الدولية**، ص١٠٨؛ رضوان، **جهود العثمانيين**، ص١١٩.
(١٤٩) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢٨٦.
(١٥٠) **ينبع**: مدينة على ساحل البحر الأحمر، إلى الغرب من المدينة المنورة. انظر: الكبسي، **اللطائف السنية**، ص٢٤٧.
(١٥١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٣٣.
(١٥٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٤٢.
(١٥٣) الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٧٧.
(١٥٤) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٩٢.
(١٥٥) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢٠١.
(١٥٦) الأشرف قانصوه الغوري، ص١٣٢.
(١٥٧) عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص٣١٠.
(١٥٨) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٩؛ النهروالي، **البرق اليماني**، ص١٩.
(١٥٩) رضوان، **جهود العثمانيين**، ص١٢٤.
(١٦٠) هو عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر القرشي، الملقب بالملك الظافر، آخر سلاطين اليمن من بني طاهر، امتد سلطانه في جميع اليمن، قتل في الحرب التي نشبت بينه وبين الجيش المملوكي سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م. انظر: الزركلي، **الأعلام**، جـ٣، ص٢٥٣.
(١٦١) الكبسي، **اللطائف السنية**، ص١٩٧؛ المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٩.
(١٦٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٣٠٧-٣٠٨.
(١٦٣) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٣١٠-٣١١.
(١٦٤) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٩.
(١٦٥) الرمال، **صراع المسلمين مع البرتغاليين**، ص١٥١.
(١٦٦) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٤٦٧.
(١٦٧) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٤٦٧؛ سالم، **الفتح العثماني**، ص٩٦.
(١٦٨) سالم، **الفتح العثماني**، ص٩٧؛ الرمال، **صراع المسلمين مع البرتغاليين**، ص١٥٥.
(١٦٩) النهروالي، **البرق اليماني**، ص٢٠؛ الكبسي، **اللطائف السنية**، ص١٩٧-٢٠٠.
(١٧٠) **الحديدة**: من الموانئ الحديثة باليمن، وهي مركز مديرية الجبى في بلاد ريمة، وأعمال مدينة صنعاء. انظر: باحويرث، أطماع البرتغاليين، ص١٢٩.
(١٧١) **اللحية**: بلدة عامرة من أرض تهامة على ساحل البحر الأحمر، تقع شمالي الحديدة. انظر: باحويرث، أطماع البرتغاليين، ص١٢٩.
(١٧٢) **زبيد**: مدينة مشهورة باليمن، تقع قبالة ساحل باب المندب. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٣، ص١٣١.
(١٧٣) النهروالي، **البرق اليماني**، ص٢١.
(١٧٤) الكبسي، **اللطائف السنية**، ص٢٠٣.
(١٧٥) النهروالي، **البرق اليماني**، ص٢٣-٢٤؛ طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٣٠٢؛ دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٥٥.
(١٧٦) النهروالي: **كتاب الإعلام**، ص٢٦٢.